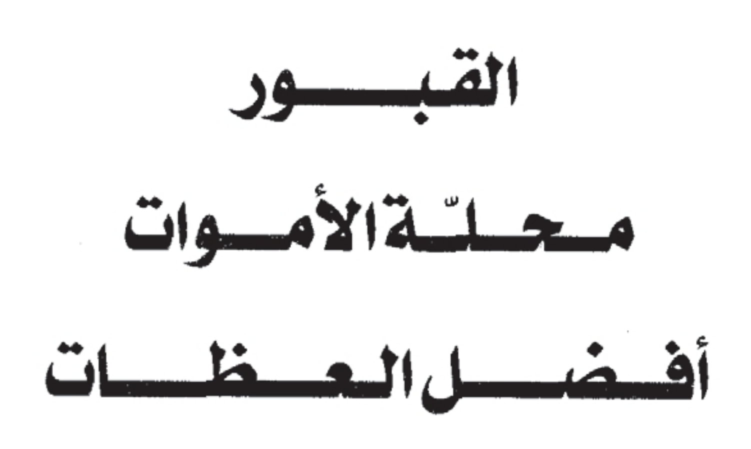


القبور محلّة الأموات أفضل العظات

إني أبشك من حديثي … والحديث له شجونْ

غيّرتُ موضع مرقدي … يومًا فنافرني السكونْ

قل لي فأول ليلةٍ … في القبر كيف تُرى تكونْ؟

القبور محلّة الأموات وأفضل العظات

● عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينا نحن مع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، إذ بصر بجماعة، فقال: «**علام اجتمع هؤلاء؟**» قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فبدّى بين يدي أصحابه مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر فجثى عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: «**أيْ إخواني لمثل هذا اليوم فأعدوا**»[1] .

● وعن هانئ مولى عثمان، قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»، قال: وقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «**ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه**»[2] .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**استحيوا من اللَّه حق الحياء**». قالوا: إنا لنستحيي والحمد للَّه. قال: «**ليس ذاك، ولكن من استحيا من اللَّه حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعَى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللَّه حق الحياء**»[3] .

---

(١) **حسن**: رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٩٤)، والبخاري في «التاريخ» (٨/ ١/ ٢٢٩)، وابن ماجه (٤١٩٥)، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٥١) و«صحيح الجامع» (٢٦٥٩).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٣٠٩)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٥)، وصححه ووافقه الذهبي، والبخاري في «التاريخ»، والخطيب في «التاريخ»، وحسّنه الألباني في «المشكاة» (١٣٢)، و«صحيح الجامع» رقم (١٦٨٤).

(٣) **حسن**: رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي (٢٤٦٠)، والحاكم (٤/ ٣٢٣)، والبيهقي في =

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «**زوروا القبور؛ فإنها تُذكركم الآخرة**»[1] .

● وخرّج ابن ماجه من حديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ : «**فزوروها؛ فإنها تزهد في الدنيا وتذكّر الآخرة**»[2] .

● «وروى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن أبي سريع الشامي، قال: قال عمر ابن عبد العزيز لرجل من جلسائه: يا فلان قد أرقت الليلة متفكرًا، قال: فبم يا أمير المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في القبر لاستوحشت من قربه، بعد طول الأنس منك بناحيته، ولو رأيت بيتًا تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الرائحة، وبلى الأكفان، بعد حسن الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خرّ مغشيًّا عليه»[3] .

● «وعن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث إليَّ عمر بن عبد العزيز، فقَدمت عليه، فأدمت النظر إليه، فقال لي: يا ابن كعب، إنك لتنظر إليَّ نظرًا ما كنت تنظره إليَّ بالمدينة. قال: قلت أجل يا أمير المؤمنين، يعجبني ما حال من لونك، ونحل من جسمك. قال: فكيف بك يا ابن كعب لو رأيتني بعد ثالثة في القبر، وقد ثبت عيناي على وجنتي، وخرج الدود والصديد من منخري، لكنت لي أشد نكرة».

● وعن وهيب بن الورد، قال: بَلغَنا أن رجلاً فقيهًا دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال: سبحان اللَّه، كأنه يعجب من أمره الذي هو عليه، فقال

= «الشعب»، وحسّنه الألباني في «تحقيق المشكاة» رقم (١٦٠٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٩٣٥) عن أبي هريرة.

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وأحمد، وأبو داود عن بريدة.

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه، والحاكم (١/ ٣٧٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) «أهوال القبور» ص(١٩٥).

له: تغيّرت بعدنا! فقال لـه عمر: وتبيّنـت ذلك فقال له: الأميـر أعظم من ذلك، فقال له: يا فلان فكيف لو رأيتني بعد ثلاث، وقد أُدْخِلت قبري، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين، وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وانفتح الفم، ونتأ البطن، فعلا الصدر، وخرج الصديد من الدبر.

• وعن شعيب بن أبي حمزة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض مدائن الشام: أمّا بعد، فكم للتـراب في جسد ابن آدم من مأكل، وكم للدود في جوفه مـن طريق مخترق، وإني أحـذّركم ونفسي ـ أيها الـناس ـ العرض على اللَّه عز وجل.

• وروى أبو نعيم الحافـظ، بإسناد له، أن عمر بن عبد الـعزيز شيع مرّة جنازة من أهله، ثم أقـبل على أصحابه ووعظهم، وذكر الدنـيا فذمها، وذكر أهلها، وتنعمهم فيها، وما صاروا إلـيه بعدها من القبور، وكان من كلامه أنه قال: إذا مررت بهـم فنادهم إن كنت مـناديًا، وادعهم إن كنـت لا بد داعيًا، ومرّ بعسكرهم، وانـظر إلى تقارب منازلهم، سل غنيهـم: ما بقي من غناه؟ وسل فقيرهم: ما بقي من فقره؟ وسلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا إلى اللذات بها ينـظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحـسنة، والأجساد الـناعمة، ما صنـع بها الديدان تحـت الأكفان، وأكلت اللحمان وعفرت الوجوه، ومحيت المحاسن، وكسرت الفقار، وبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء، وأين حجابهم وقبابهم؟ وأين خدمهم وعبيدهم؟ وجمعهم وكنوزهم؟ واللَّه ما زودهم فراشًا، ولا وضعوا لهم هناك متكأ، ولا غرسوا لهم شجرًا، ولا أنزلوهم من اللحد قرارًا، أليسوا في منازل الخلوات؟ أليس الليل والـنهار عليهم سواء؟ أليسـوا في مدلهمة ظلماء؟ قد حـيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة، وكم من ناعم وناعمة أضحوا ووجوههم بالية،

وأجسادهـم من أعناقـهم بائنة، وأوصـالهم ممزقـة، وقد سالت الحـدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ودبّت دواب الأرض في أجسادهم، ففرقت أعـضاءهم، ثم لم يلـبثوا إلا يسيرًا حتـى عادت العظام رميـمًا، فقد فارقوا الحـدائق، وصاروا بعـد السعة إلـى المضائق، قـد تزوجت نسـاؤهم، وتردّدت في الطرق أبناؤهم، وتوزّعت القرابات ديارهم وثراهم، فمنهم واللَّه الموسع له في قـبره، والغض الناظر فيه المتـنعم بلذته، يا ساكن الـقبر غدًا ما الذي غرك من الدنيا؟ هـل تعلم أنك تبقى لها وتبقـى لك؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد؟ وأين ثمرتك اليـنعـة؟ وأين رقاق ثيابك؟ وأين طيبك ونحورك؟ وأين كسوتـك لصيفك وشتائك؟ أمـا واللَّه قد نزل به الأمر، فمـا يدفع عن نفسه وجلاً، وهـو يرشح عرقًا، ويتلمـظ عطشًا، يتقلب فـي سكرات الموت وغمـراته، جاء الأمر مـن السمـاء، وجاء غالـب القدر والقـضاء. هيـهات هيهات: يا مغـمِّض الوالد والأخ والولد، وغاسله، ويا مكفّـن الميت وحامله ويا مُخَلِّيـه في القبر، وراجعًا عنه، لـيت شعري كيف على خـشونة الثرى، ليت شـعري بأي خديـك بدأ البلى، يـا مجاور الهلـكات صرت في مـحلة الموت، ليت شعري مـا الذي يلقاني به ملك الموت عند خـروجي من الدنيا، وما يأتيني به من رسالة ربي.

ثم انصرف فما عاش بعد ذلك إلا جمعة ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

وقد روي عنه من وجوه مـتعددة أنه قال في آخر خطبة خـطبها ـ رحمة اللَّه عليه ـ: «ألا ترون أنكم في أسلاب الهالـكين، ثم يرثها بعدكم الباقون، كذلك حتى ترد إلـى خير الوارثين، وفي كل يوم تشيعـون غاديًا ورائحًا، قد قضى نحبه فـتودعونه في بطن صدع من الأرض، غيـر ممهّد ولا موسد، قد فارقه الأحباب، وخلع الأسباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنيًّا عما

خلف، فقيرًا إلى ما قدم.

وكان ينشد هذه الأبيات:

وروي أنه كان في جنازة في مقبرة، فرأى قومًا يهربون من الشمس إلى الظل، فأنشد يقول بعد الصلاة على الرسول ﷺ:

مَنْ كان حين تصيبُ الشمسُ جبهته ... أو الغبار يخاف الشَّيْن والشَّعَثا

ويألفُ الظلّ كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جَدَثًا

في ظلّ مقفرة غبراء مظلمة ... يُطيل تحتَ الثَّرَا في غمِّه اللبثا

تجهّزي بجهازٍ تبلغين به ... يا نفسُ قبلَ الرَّدى لم تُخْلَقي عَبَثَا

● وروى ابن أبي الدنيا، أن محمد بن واسع دخل على بلال بن أبي بردة، يسأله عن القدر، فقال له: جيرانك من أهل القبور، فكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر.

● وعن مغيث الأسود الزاهد، قال: زوروا القبور كل يوم تفكركم.

● وقال النصر أبو المنذر لإخوانه: زوروا الآخرة كل يوم بفكركم، وشاهدوا الموقف بهمكم، وتوسدوا القبور بقلوبكم، واعلموا أن ذلك كائن لا محالة، فمختار لنفسه ما أحب من المنافع والضرر.

● وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت مضر بن عيسى يقول: رحم اللَّه قومًا زاروا إخوانهم بقلوبهم في قبورهم، وهم قيام في ديارهم، يشيرون إلى زيارتهم بالفكر في أحوالهم.

● وعن عبد اللَّه بن المبارك: مرّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة، فناداه فقال: يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا، لك فيهما معتبر: كنز الأموال، وكنز الرجال.

• وقال ابن أبي الدنيا: ثنا أبو محمد النخعي، قال: انتفض غنّام بن علي يومًا وهو مع أصحابه، فقال له بعضهم: ما الذي أصابك؟ قال: ذكرت اللحد.

• ومما يروى لابن المبارك:

يا ذا الذي قد دفنَ الأباعدَ والأقربينَ صاعدًا فصاعدا

أجدر به أن يذكر الملاحدا يا مَنْ يرجي أن يكون خالدا

ضربت فاعلمه حديدًا باردًا لا بُدَّ تلقى طيبًا وزائدا

• قال ابن أبي الدنيا: أنشدني الحسين بن عبد الرحمن:

لِيَبْكِ لأهوالِ القيامَةِ مَنْ بَكَى ولا يَنْسَيَنَّ القبرَ ناسٌ ولا البِلى

كَفَى حزنًا يومًا ترى فيه مُكْرَمًا كَرَامَتُهُ أن يوقره من الثَّرَى[1]

* * *

عباد اللّه: إنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَنْ قد مضى قبلكم، مِمَّن كان أطول منكم أعمارًا، وأعمر ديارًا، وأبعد آثارًا... أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيّدة والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المُسْنَدَةَ، والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بُني بالخراب فناؤها، وشُيد بالتراب بناؤها، فمَحلّها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الدار... وكيف يكون بينهم تزاور وقد

---

(١) «أهوال القبور» لابن رجب ص(١٩٦ ـ ١٩٩).

طحنهم بكلكله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثرى؟.

وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارتهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع.

سألت الدار تخبرني ... عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لي أقام القوم أيـ ... ـامًا وقد رحلوا
فقلت وأين أطلبهم ... وأي منازلٍ نزلوا
فقالت في القبور ثوواْ ... رهانًا بالذي فعلوا

* * *

* أهل القبور:

يا أهل الدّيار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظْلمة يا أهل التربة يا أهل الغربة، يا أهل الوَحْدَة يا أهل الوحشة.

أنتم لنا فَرَط سابق، ونحن لكم تبع لاحق، أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قُسمتْ. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟

أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى.

تهيج منازل الأموات وجداً ... ويحدث عند رؤيتها اكتئابُ
منازل لا تجيبك حين تدعوا ... وعَزّ عليك أنك لا تُجابُ
وكيف يجيب من تدعوه ميتًا ... تضمّنت الجنادل والترابُ

* * *

* **أخي: تذكّر من ثوىٰ في قبره:**

• قد غُودِر في محلة الأموات رهينًا، وفي ضيق المضجع وحيدًا.

قد هتكت الهَوَام جلدته، وأبْلت النواهك جدّته، وَعَفَت العواصف آثارهُ، ومحا الحَدَثان مَعالمَه، وصارت الأجساد شحبة بَعْدَ بَضَّتها، والعظام نَخِرَة بعد قوتها، والأرواح مُرْتَهنَةً بثقل أعبائها موقنة بغيب أنبائِها، لا تستزاد من صالح عملها، ولا تستعتب من سيئ زللها.

أو لستم أبناء القوم والآباء، وإخوانَهم والأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدتَّهم، وتطئون جادّتهم فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها سالكة في غير مضمارها! كأن المَعْنِي سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها. كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب. قبل الضنك والمضيق، والرَّوع والزُّهوق، قبل قدوم الغائب المنتظر وأخذة العزيز المقتدر.

إني أبثك من حديثي	والحديث له شجونْ
غيّرت موضع مرقدي	يومًا فنافرني السكونْ
قل لي فأول ليلةٍ	في القبر كيف تُرى تكونْ

* **أخي: تذكّر الغافل السادر في غيّه حتى حلّ بالقبر:**

عاش في هفوته يسيرًا، ومات في فتنته غريرًا، لم يُفده عوضه، ولم يقض مُفْترضًا، وهمته فجعات المنية في غُبَّر جماحه، وشنن مِراحه.

فظل سادرًا، وبات ساهرًا في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعًا، ولادمة للصدر

قلقًا، والمرء في سكرة ملهثة، وغمرة كارثة، وأنَّةٍ موجعة وجذبة مكربة، وسَوْقَةٍ متعبة، ثم أدرج في أكفانه مُبْلسًا، وجذب منقادًا سَلِسًا، ثم ألقي على الأعواد رجيع وَصَب، ونِضو سَقَم، تحمله حفدة الولدان، وحشدة الإخوان، إلى دار غربته، ومنقطع زورته، ومفرد وحشته.

حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع، أقعد في حفرته نجيًا، بهتهُ السؤال، وعثرة الامتحان.

أولي الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع: هل من مناص أو خلاص... أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو مَحَار؟ فأنّى تؤفكون. أم أين تصرفون، أم بماذا تغترون؟، وإنما حظ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قِيدُ قَدِّه مُتَعفرًا على خده.

آنس بالموت من الطفل بثدي أمه.

* **القبر بقلم الرافعي:**

«هذا المرقد الذي إليه المنتهى من رحلة الحياة المجهدة، في ضريحه نلقى عصا التسيار بعد سفرنا الشاق على ظهرها، وعلى ثراه تكون رقدة للمرء ما لها مِن سَحَر، نطوي بعدها الحديث عن الصديق، وندفن الخبر عن العدو، ويقطع حبل اللقاء بيننا وبين الولد والأمل، وعند لحده تنتهي الحياة بكل حقائقها وأوهامها، وأبلغ واعظ في صمته، وأخوف شيء في رهبته، من عاش معه على الميعاد المضروب واللقاء المنتظر، هانت عليه الدنيا وعاشها كعابر سبيل يتحنّث.

وللأستاذ مصطفى صادق الرافعي في وحي القبور وفلسفتها أدب واعظ تنبض سطوره بفيض غزير من شؤون العين وشجون النفس وتفيض معانيه

بالحكمة الصادقة، فأنت تارة مع أدبه من معاني القبر في خوف هالع من ظلمته ووحشته، وأنت مرة أخرى مع طمأنينة الإيمان المنبعثة من تيّار أدبه المؤمن، فتحس معاني الإيناس من هذا البرزخ الصامت»[١] .

*** يقول الرافعي:**

«فتحنا القبر، وضرحنا للميت العزيز، لم أقل أنه مات، بل قلت إنه موته قد مات، كأن الحي على هذه الأرض هو القبر الإنساني في بعض عمرها، أما ترى هموم الدنيا وأحزانها كيف لا يخلو أحد منها؟.

وكيف تخرج من النعيم كما تخرج من البؤس؟ ما أحسبها إلا صوراً من ظلمة القبر يجيء القبر فيها بعد حين إلى ميته الذي لم يمت.

مَن يهرب من شيء تركه وراءه إلا القبر؟ فما يهرب أحد منه إلا وجده أمامه، هو أبدًا ينظر غير متململ، وأنت أبدًا متقدم إليه غير متراجع...

وليس في السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسم اللَّه، وليس في الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسم القبر...

وأينما يذهب الإنسان تلقته أسئلة كثيرة: ما اسمك؟ ما صناعتك؟ كم عمرك؟ كيف حالك؟ ماذا تملك؟ ما مذهبك؟ ما دينك؟ ما رأيك؟...

ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل اللغات البشرية كلها في الفم الأخرس...

وهناك يتحرك اللسان الأزلي بسؤال واحد للإنسان: ما أعمالك؟»[٢] .

---

(١) «الجانب الإسلامي في أدب الرافعي» لعبد الستار السطوحي ص(٢٠٨) ـ طبع دار الاعتصام.

(٢) «كتاب المساكين» للرافعي ص(٥٩).

«فتحنا القبر وأنزلنا الميت العزيز الذي شفي من مرض الحياة، ووقفت هناك.. بل وقف التراب المتكلم يعقل عن التراب الصامت، ويعرف منه أن العمر ـ على ما يمتد ـ محدود بلحظة، وأن القوة ـ على ما تبلغ ـ محدودة بخمود، وأن الغايات ـ على ما تتسع ـ محدودة بانقطاع، وحتى القارات الخمس محدودة بقبر.

يا عجبًا!... القبور مأهولة بملء الدنيا، وليس فيها أحد... أية ذرة من التراب هي التي كانت نعَمة ورغدًا، وأيتها كانت بؤسًا وشقاء؟ وأيتها كانت حبًّا ورحمة وأيتها كانت بغضًا وموجدة؟.

سألت القبر: أين المال والمتاع؟ وأين الجمال والسحر؟ وأين الصحة والقوة؟ وأين المرض والضعف؟ وأين القدرة والجبروت؟ وأين الخنوع والذلة؟ قال: كل هذه صور فكرية لا تجيء إلى هنا؛ لأنها لا تؤخذ من هنا، فلو أنهم أخذوا هدوء القبر لدنياهم وسلامته لنزاعهم، وسكونه لتعبهم، لسخروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون»[1] .

*** واهًا لك أيها القبر:**

● يقول الرافعي:

واهًا لك أيها القبر لا تزال تقول لكل إنسان: تعال ولا تبرح، كل الطرق تفضي إليك فلا يقطع بأحد دونك ولا يرجع عن طريق راجع، وعندك وحدك المساواة فما أنزلوا قط فيك ملكًا عظامه من ذهب ولا بطلاً عضلاته من حديد ولا أميرًا جلده من ديباج ولا وزيرًا وجهه من حجر ولا غنيًّا جوفه

---

(١) «كتاب المساكين» الرافعي ص(٥٩).

خزانة ولا فقيرًا في أحشائه مخلاة، ألا ويحك أيها القبر لم لا تأتي إلا في الآخر ولم تضع حدود معانيك بين الأحياء بعضهم مع بعض حتى يقوم بين الضعف والقوة حد المساواة وبين النفوس والشهوات حد التقوى وبين الحرام والحلال حد الله.

*** أحباؤنا الموتى ولوعة الأسى:**

وكما يضع القبر حدود معانيه في المساواة المطلقة بين الناس على اختلاف أجناسهم وأقدارهم عند هبوطهم ثراه... كذلك يضع الموت معاني المساواة بين الأحياء والذين هوى من بينهم ميتهم العزيز، فالإحساس بالألم الدفين تجب به قلوب الجميع على حد سواء وبرحاء الكرب تنتزي به أكبادهم.

ولعل الموت كما يجرد الحيّ من روحه ينتزع من أهله شهوات أرواحهم فيميتهم مدة من الزمن في القلب وفي العين وفي الفكر وبذلك يرد جميع المحزونين إلى المساواة فأهل كل ميت وإن علا أهل كل ميت وإن نزل وتموت بالموت الفروق الإنسانية في المال والحياة والقول والجمال حتى لا يبقى إلا الدمعة واللوعة والحسرة والزفرة، وهذه هي أملاك الإنسانية المسكينة.

يا هم من يحس ويعرف ويرى كيف يموت العزيز عليه، كيف يتحول من يحبه إلى ذكرى، وأن ما يعمل في القبر يعمل قريب منه في القبر»[1] .

● يقول الرافعي:

«ما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع، وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار، وبين الطرفين المعبد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي الضمير، فهو على الحياة

---

(١) «كتاب المساكين» ص(٦٣).

والموت كالقاضي بين خصمين يصلح بينهما صلحًا أو يقضي...

القبر كلمة الصدق مبنية متجسمة فكل ما حولها يتكذب ويتأول وليس فيها هي إلا معناها لا يدخله كذب ولا يعتريه تأويل، وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرور، أو باطل، أو غفلة، أو أثرة بقي القبر مذكرًا بالكلمة شارحًا لها بأظهر معانيها داعيًا إلى الاعتبار بمدلولها ميتًا.

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا معناها أن الإنسان حر في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي.

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة فلا يترك الشرك يمضي إلى نهايته بل يحسم في بدئه ويقتل في أول أنفاسه.

وكذلك الشأن في كل ما لا يحسن أن يبدأ، فإنه لا يجوز أن يبتدي للعداوة، والبغضاء والبخل والأثرة والكبرياء والغرور والخداع والكذب وما شابك هذه أو شابهها، فإنها كلها انبعاث من الوجدان الحيواني وانفجار من طبيعته، ويجب أن يكون منها في الإرادة قبر كي نسلم للنفس الطيبة إنسانيتها إلى النهاية.

يا من لهم في القبور أموات: إن رؤية القبر زيادة في الشعور بقيمة الحياة، فيجب أن يكون معنى القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا.

القبر فم ينادي أسرعوا أسرعوا، فهي مدة لو صرفت كلها في الخير ما وفت به فكيف يضيع فيها ضياع في الشر أو الإثم؟

هنا قبر وهناك قبر وهنالك قبر أيضًا، فليس ينظر في هذا عاقل إلا كان نظره كأنه حكم محكمة على هذه الحياة، فكيف تبقى وكيف تكون؟

في القبر معنى إلغاء الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه

وأن يسقط منها أوقات الشر والإثم، وأن يميت في نفسه خواطر السوء، فمن معاني القبر ينشأ للإرادة عقلها القوي الثابت، وكل الأيام المكروهة لا نجد لها مكانًا في زمن هذا العقل كما لا يجد الليل محلاً في ساعات الشمس.

ثلاثة أرواح لا تصلح روح الإنسان في الأرض إلا بها:

روح الطبيعة في جمالها، وروح المعبد في طهارته، وروح القبر في موعظته»[1].

*** القبور بيوت الغربة والوحشة والوحدة:**

● قال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير: كان أبو بكر الصديق ﷺ يقول في خطبته: أين الوجوه الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم، الذين كانوا لا يعطون الغلبة في مواطن الحرب، أين الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحيطان قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا في ظلمات القبور، الوحا الوحا، النجا النجا.

● وروى ابن أبي الدنيا بإسناد له، عن الحسن، أنه مرّ عليه شاب، وعليه بزة له حسنة، فدعاه، فقال له: ابن آدم معجب بشبابه، معجب بجماله، كأنّ القبر قد واري بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داوي قلبك، فإن حاجة اللَّه إلى عباده صلاح قلوبهم.

● وعن عبد اللَّه بن العيزار قال: لابن آدم بيتان: بيت على ظهر الأرض، وبيت في بطن الأرض، فعمد إلى الذي على الأرض فزخرفه وزينه، وجعل فيه أبوابًا للشمال، وأبوابًا للجنوب، وصنع فيه ما يصلحه

---

(١) «من وحي القلم» للرافعي (٢/ ١٥٧).

لشتائه وصيفه، ثم عمد إلى الذي في بطن الأرض فخربه، فأتى عليه آت، فقال: أرأيت هذا الذي أراك قد أصلحته، كم تقيم فيه؟ قال: لا أدري. قال: فالذي خربته، كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامي، قال: تقرّ بهذا على نفسك، وأنت رجل تعقل؟!.

● وعن الحسن قال: يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط:

ليلة تبيت مع أهل القبور لم تبت ليلة قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة، ويوم يأتيك البشير من اللَّه تعالى، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ويوم تعطى كتابك إما بيمينك وإما بشمالك.

● وعن عمر بن ذر أنه كان يقول في مواعظه: لو علم أهل العافية ما تضمنته القبور من الأجساد البالية، لجدّوا واجتهدوا في أيامهم الغالية، خوفًا ليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

● وعن مطرف بن عبد اللَّه بن الشخير، قال: القبر منزلٌ بين الدنيا والآخرة، فمن نزله بزاد، ارتحل به إلى الآخرة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

● وعن الحسن قال: أذنوا بالرحيل، وجلس أولهم على أخرهم، وهم يلعبون.

● وقال رجل لبعض السلف: أوصني. قال: عَسْكَرُ الموتى ينتظرونك.

● وكان أبو عمران الجوني يقول: لا يغرنكم من ربكم طول النسية، وحسن الطلب، فإن أخذه أليم شديد، حتى متى تبقى وجوه أولياء اللَّه بين أطباق التراب، وإنما هم محبوسون لبقية آجالكم حتى يبعثهم اللَّه إلى جنته وثوابه.

● وعن محمد بن واسع قال: كل يوم ينتقل منّا إلى المقابر ثلاثة، وكأنك بهذا الأمر قد عم أحزانًا، حتى تلحق بأولنا.

● وشهد الحسن جنازة، فاجتمع عليه الناس، فقال: اعملوا لمثل هذا اليوم ـ رحمكم اللَّه ـ، فإنما هم إخوانكم تقدموكم، وأنتم بالأثر، أيها الخالف بعد أخيه أنت الميت غدًا، والباقي بعدك، والميت في أثرك أولاً فأول، حتى توافوا جميعًا قد عمكم الموت جميعًا، واستويتم جميعًا في كربه وغصصه، ثم تخليتم جميعًا، إلى القبور، ثم تنشرون جميعًا، ثم تعرضون على ربكم ـ عز وجل.

● وقال صفوان بن عمرو: وقد ذكروا النعيم وسمّوا أناسًا، فقال رجل: أنعم الناس أجسادًا في التراب قد أمنت العذاب تنتظر الثواب.

● وقال مسروق: ما من بيت خير للمؤمن من لحده، قد استراح من هموم الدنيا أو من عذاب اللَّه.

● وقال بشر بن الحارث: نعم المنزل القبر لمن أطاع اللَّه عز وجل.

● وقال الفضل بن عسال: مر رجل بقبر محفور، فقال: نعم مقيل المؤمن هذا.

قال: ونظر رجل إلى القبور فقال: أصبح هؤلاء زاهدين فيما نحن فيه راغبون.

● وعن عقيبة البزار، قال: رأى أعرابي جنازة، فأقبل يقول: هنيئًا هنيئًا يا صاحبها. فقلت: علام تهنئه؟! قال: كيف لا أهنئ من يذهب به إلى حسن جوار، كريم نزله، عظيم عفوه، قال: فكأني لم أسمع ذلك القول إلا تلك الساعة.

● قال ابن أبـي الدنيا: وحدثـني أبو مالك البـجلي، عن أبي مـعاوية، قال: قل ما لقيني مالك بن مغول إلا قال لي:

لا تغرنك الحياة وقدم واحذر القبر، إن للقبر شأنًا.

قال: وحدثـنا أحمد بن مـحمد الأزدي، قال: ثـنا حامد بن أحـمد بن أسد، قال: أخذت بيدي عليّ بن جبلة يومًا، فأتينا أبا العتاهية، فوجدناه في الحمام، فانتظرناه، فلم يلبث أن جاء، فدخل عليه إبراهيم بن مقاتل بن سهل ـ وكان جميلاً ـ، فتأمله أبو العتاهية، وقال متمثلاً بهذه الأبيات:

يا حِسَانَ الوجوه سوف تموتوا ... ثم تبلَى الوجوه تحت التراب

يا ذوي الأوجه الحِسَان المصُونات ... وأجسامها الغضَاض الرِّطَاب

فأقبل علي بن جبلة فقال اكتب:

يا مربي شبابه للتراب ... سوف يلهو البِلَى بغضٍّ الشباب

أَكْثِروا من نعيمها أو أقلُّوا ... سوف تهدونها لِعَفْرِ التُّراب

قد نَعَتكَ الأيام نعيًا صحيحًا ... بفراق الإخوان والأصحاب

فقال أبو العتاهية: قل يا حامد، قلت: معك ومع أبـي الحسن، قال: نعم. فقلت:

يا مقيمين ارحلوا لذهابٍ ... بشفير القبور حطوا الرِّكاب

نَعِّمُوا الأوجه الحسان فما ... صَوْنُكُمُوهَا إلا بِعَفْرِ التراب

والبِسُوا ناعِمَ الثِّياب ففي ... الحُفَرةِ تَعْرُوا من جميع الثياب

قد ترون الشَّباب كيف يموتون ... إذا استنضرُوا بماء الشباب

***

● «عن ميمـون بن مهران، قال: خرجت مـع عمر بن عبد الـعزيز إلى المقابر، فلما نظـر إليها بكى، ثم أقبل على ميمون فـقال: يا أيوب هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الـدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى فدخـلت بهم المثلات، واستحـكم فيهم البلاء، وأصابـت الهوام في أبدانهم مقيلاً، ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: انطلق بنا، فواللَّه ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب اللَّه عز وجل.

● وعن ثابت البناني، أنه دخل المقابـر فبكى، ثم قال: بليت أجسادهم، وبقيت أخبارهم، فالعهد قريب، واللقاء بعيد.

● وعن بعض الأعراب أنه وقف على قبر وأنشد في هذا المعنى شعرًا:

لـكـلِّ أُنَـاس مَـقْـبَـرٌ بـفـنـائـهـم … فهم ينقصون إلا القبـور تزيد

ومـا أن تـرى دارًا لحيٍّ قـد أَقْـفَـرت … وقبـر الميت بـالـفَـنَـاء جديـد

فـهم جِيـرَةُ الأحـياء أمّا محلّـهـم … فَـدَانٍ وأمـا المُـلْـتَـقَـى فـبـعـيـد

● وعن بعضهم أنه مر في سفره بمقبرة لبعض المدن، فقال:

كَـفَـى حُـزنًـا أن لا أَمُـرّ بِـبَـلْـدَةٍ … مِنَ الأرضِ إلا دون مَدْخلها قَبْـر

● وعن جعفر بن سليمان، أنه قال: كـنا نخرج مع مالك بن دينار زمان الحطمة، فنجمع الموتى، ونجهزهم، فيخرج مالك على حمار قصير قحاطي، لجامه من ليـف، وعليه عباءة مرتديهـا، فيعظنا في الطـريق، حتى إذا أشرف على القبور، قال بصوت له محزون: ـ رحمة الـلَّه عليه ـ، نفعنا اللَّه بأقرب الخلق إليه:

أَلاَ حـيِّ الـقُـبُـورَ ومَـنْ بِـهِـنَّـه … وجـوهٌ في الـتـرابِ أَجِـنَّـهُـنَّـه

فـلـو أن الـقـبـور أَجَـبْـنَ حـيًّـا … إذًا لأَجَـبْـنَـنـي إذا زُرْتُـهُـنَّـه

ولكنَّ القُبْـــورَ صَمَتْنَ عنِّي فأبت بحســرة من عِنْدِهِنَّــه

● وروى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن سلام بن صالح، قال: فُقِدَ الحسن ذات يوم، فلما أمسى، قال له أصحابه: أين كنت اليوم؟ قال: كنت اليوم عند إخوانٍ لي، إن نسيت ذكروني، وإن غبت عنهم لم يغتابوني، فقال له أصحابه: نعم الإخوان والله هؤلاء، يا أبا سعيد، دلنا عليهم. قال: هؤلاء أهل القبور.

● وبإسناده، عن عبد الواحد بن زيد، أن الحسن قال لأصحابه، وهم في المقابر: هؤلاء أهل محلة قد كُفِي من جلَس إليهم الكلام، وله في الجلوس إليهم الموعظة والاعتبار»[1] .

* كلام القبور للموتى:

وردت آثار صحاح وحسان عن السلف الصالحين - وهم من التقوى والورع في الذروة - توضح وتبين حديث القبور إلى الموتى، ونداء القبر للأحياء، ومردّ ذلك إلى قدرة العزيز الحكيم الذي لا يعجزه شيء.

● عن عُبيد بن عمير - رحمه الله - أنه قال:

«يُجعل للقبر لسانًا ينطق به، فيقول:

ابن آدم كيف نسيتني؟!

أما علمت أني بيت الأكلة، وبيت الدود، وبيت الوحشة»[2] .

● وعنه - رحمه الله - أنه قال:

«إن القبر ليبكي، يقول في بكائه: أنا بيت الوحشة، أنا بيت

---

(١) «أهوال القبور» ص(١٧٧ - ١٧٩).

(٢) أثر صحيح: أخرجه هنّاد في «الزهد» (٣٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٧١).

الوحدة، أنا بيت الدود»[١] .

● وعنه ـ رحمه اللَّه ـ أنه قال:

«إن القبر ليقول: يا بن آدم ماذا أعددت لي؟

ألم تعلم أني بيت الغربة، وبيت الوحدة، وبت الأكلة، وبيت الدود»[٢].

● وقال أسيد بن عبد الرحمن ـ رحمه اللَّه ـ:

«بلغني أن المؤمن إذا مات، وحُمِل قال: أسرعوا بي، فإذا وُضِع في لحده كلّمته الأرض فقالت له: إِن كنتُ لأُحبك وأنت على ظهري، فأنت الآن أحبّ إليّ.

فإذا مات الكافر وحُمِل قال: ارجعوا بي، فإذا وُضِع في لحده كلّمته الأرض فقالت: إن كنت لأبغضك وأنت على ظهري، فأنت الآن أبغض إليّ»[٣] .

● وقال عبد اللَّه بن عُبيد بن عمير:

بلغني أن الميت يقعد في حفرته، وهو يسمع خطو مشيعيه، ولا يكلمه شيء أول من حفرته، تقول:

ويحك ابن آدم!!

أليس قد حُذِّرتني، وحذرت ضيقي، وظلمتي، ونتني، وهَوْلي؟!! هذا

(١) صحيح: أخرجه هنّاد في «الزهد» (٣٤٢)، وبنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٤٤٣).

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٢٢٩).

(٣) صحيح: أخرجه ابن المبارك (١٦٢)، كما في «زوائد الزهد».

ما أعددتُ لك، فما أعددت لي؟![1] .

● وعن بلال بن سعد ـ رحمه اللَّه ـ:

«ينادي القبر في كل يوم: أنا بيت الغربة، وبيت الدود والوحشة، وأنا حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وإن المؤمن إذا وُضِع في لحده كلمته الأرض من تحته، فقالت: واللَّه لقد كنتُ أحبك وأنت على ظهري تمشي، فكيف وقد صِرْت في بطني، فإذا وليتك فستعلم ما أصنع، فيتسع له مدّ بصره، وإذا وُضِع الكافر قالت: واللَّه لقد كنت أبغضك وأنت تمشي على ظهري، فإذا وليتك فستعلم ما أصنع فتضمه ضمّة تختلف منها أضلاعه»[2] .

● وعن عمر بن ذر قال: «إذا دخل المؤمن حفرته نادته الأرض: أمطيع أم عاص؟ فإن كان صالحًا ناداه مناد من ناحية القبر عودي عليه خضرة، وكوني عليه رحمة، فنعم العبد كان للَّه عز وجل، فتقول الأرض: الآن استحق الكرامة»[3] .

● قال سفيان الثوري: «من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومَن غفل عنه وجده حفرة من حفر النار»[4] .

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه ابن المبارك (١٦٣) كما في «زوائد الزهد» لنعيم، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «القبور» مرسلاً كما في «أهوال القبور» لابن رجب، و«شرح الصدور» للسيوطي.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وهو في «شرح الصدور» للسيوطي ص(١٥٧)، و«التحرير المرسخ في أحوال البرزخ» لابن طولون ص(١٥٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القبور»، وابن رجب في «أهوال القبور» ص(٥٥)، و«التحرير المرسخ» لابن طولون ص(١٥٩).

(٤) «شرح الصدور» للسيوطي ص(١٥٧).

أيها المتخلِّف في الدنيا بعد إخوانه، أما كان لك في الموتى معتبر، أما كان لك تقدّمهم إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالهم، وأنت في المهلة؟ فهلا استدركت ما فات، لو ناداك أهل القبور لقالوا:

يا أيها الرَّكبُ سيروا إن غايتكم ... أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا

حثوا المطايا وأرخوا من أزمَّتها ... قبل الممات وقضُّوا ما تقضّونا

كنا أناس كما كنتم فغيّرنا ... دهرٌ فسوف كما كنا تكونونا

● أيها المغتر بظهر الأرض هلاّ اعتبرت بمَن غُيِّب من أهلك في بطن الأرض ممّن غرته الدنيا قبلك، ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولاً تناديه أحبّته إلى المنزل الذي لا بد منه.

مقيمٌ إلى أن يبعث اللّه خلقه ... لقاؤك لا يُرجى وأنت قريبُ

تزيد بلىً في كل يوم وليلة ... وتنسى كما تبلى وأنت حبيبُ

● وعن أبي هريرة ﷺ، قال: مر النبي ﷺ على قبر دُفن حديثًا، فقال:

«ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتَنَفَّلُون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دُنياكم»[1] .

● وقيل: «البصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره، فيرى مكانه بين أظهرهم، فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، ويتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيِّعٌ له؛ لكان أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها؛ لأنهم عرفوا قدر الأعمار،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٩٢٤)، وغيره، وصحح إسناده وعلى شرط مسلم الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٨٨).

وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يومٍ من العمر، ليتدارك المقصر به تقصيره، فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته، فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على تلك الساعة».

● وفي «لطائف المعارف» ص(٣٥٥): «غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يُفَرِّطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي.

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير، يعني: أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة، ليتوبوا فيها ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

لَوْ قِيلَ لِقَوْمٍ ما مُنَاكُمْ طَلَبُوا ... حَيَاةَ يَوْمٍ لِيَتُوبُوا فَاعْلَمِ

وَيْحَكِ يَا نَفْسُ أَلا تَيَقُّظٌ ... يَنْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِي

مَضَى الزَّمَانُ فِي تَوَانٍ وَهَوَى ... فَاسْتَدْرِكِي مَا قَدْ بَقِي واغْتَنِمِي

وفي «التبصرة» (١/ ٢٧٢): «كم من ظالم تعدى وجار، فما راعى الأهل ولا الجار، بَيْنَا هو عقد الإصرار، حل به الموت، فحل من حلته الأزرار، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

ما صحبه سوى الكفن، إلى بيت البلى والعفن، لو رأيته وقد حلت به المحن، وشين ذلك الوجه الحسن، فلا تسأل كيف صار، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

سال في اللحد صديده، وبَلِي في القبر جديده، وهجره نسيبه ووديده،

وتفرق حشمه وعبيده والأنصار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

أين مجالسه العالية، أين عيشته الصافية، أين لذاته الخالية، كم كم تَسْفي على قبره سافية، ذهبت العين وأخفيت الآثار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

تقطعت به جميع الأسباب، وهجره القرناء والأتراب، وصار فراشه الجندل والتراب، وربما فُتح له في اللحد باب النار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

خلا والله بما كان صنع، واحتوشه الندم وما نفع، وتمنى الخلاص وهيهات قد وقع، وخلاه الخليل المصافي وانقطع، واشتغل الأهل بما كان جمع، وتملك الضدُّ المال والدار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

نادم بلا شك ولا خفا، باكٍ على ما زل وهفا، يود أن صافي اللذات ما صفا، وعلم أنه كان يبني على شفا جرف هار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

قارنه عمله من ساعة الحَيْن، فهو يتمنى الفرار وهيهات أين؟ ويقول: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين، فهو على فراش الوحدة وحده، والعمل ثاني اثنين، ولكن لا في الغار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

وهذه وإن كانت حالة من غدا، فلكلٍّ منكم مثلها غدًا، فانتبهوا من رقادكم قبل الردى ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾، إنما هي جنة أو نار، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

وفيها (٢/٢٠٦): «يا غافلاً عن نفسه! أمرك عجيب، يا قتيل الهوى! داؤك غريب، يا طويل الأمل! ستدعى فتجيب، وهذا عن قليل، وكل آت

قريب، هلا تذكرت لحدك، كيف تبيت وحدك، ويباشر الثرى خدك، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك المحب بعدك، ناسيًا عنه بعدك؟! والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك، إلى متى وحتى متى تترك رشدك؟! أما تحسن أن تحسن قصدك؟! الأمر جد مجد، فلازم جدك.

ذَهَبَ الأحِبَّةُ بَعْدَ طُولِ تَوَدُّدٍ   وَنَأَى المَزَارُ فَأَسْلَمُوكَ وأَقْشَعُوا
خَذَلُوكَ أَفْقَرَ مَا تَكُونُ لِغُرْبَةٍ   لَمْ يُؤْنِسُوكَ وَكُرْبَةً لَمْ يَدْفَعُوا
قُضِيَ القَضَاءُ وَصِرْتَ صَاحِبَ حُفْرَةٍ   عَنْكَ الأحِبَّةُ أَعْرَضُوا وتَصَدَّعُوا»

* * *

● ولأبي العتاهية في «ديوانه» ص(٢٦٦):

يَا أَيُّهَا المُتَسَمِّنُ   قُلْ لِي لِمَنْ تَتَسَمَّنُ
سَمَّنْتَ نَفْسَكَ لِلْبِلَى   وَبَطِنْتَ يَا مُسْتَبْطِنُ
وأَسَأْتَ كُلَّ إِسَاءَةٍ   وَظَنَنْتَ أَنَّكَ تُحْسِنُ
مَا لِي رَأَيْتُكَ تَطْمَئِنُّ   إِلَى الحَيَاةِ وَتَرْكُنُ
يَا سَاكِنَ الحُجُرَاتِ مَا   لَكَ غَيْرَ قَبْرِكَ مَسْكَنُ
اليَومَ أَنْتَ مُكَاثِرٌ   ومُفَاخِرٌ تَتَزَيَّنُ
وَغَدًا تَصِيرُ إِلَى القُبُو   رِ مُحَنَّطٌ وَمُكَفَّنُ
أَحْدِثْ لِرَبِّكَ تَوْبَةً   فَسَبِيلُهَا لَكَ مُمْكِنُ
واصْرِفْ هَوَاكَ لِخَوْفِهِ   مِمَّا تُسِرُّ وَتُعْلِنُ
فَكَأَنَّ شَخْصَكَ لَمْ يَكُن   فِي النَّاسِ سَاعَةَ تُدْفَنُ

وَكَـأَنَّ أَهْـلَـكَ قَـدْ بَـكَـوْا جَـزَعًـا عَـلَـيْـكَ وَرَنَّـنُـوا
فَـإِذا مَـضَـتْ لَـكَ جُـمْـعَـةٌ فَـكَـأَنَّـهُـمْ لَـمْ يَـحْـزَنُـوا
والـنَّـاسُ فِـي غَـفَـلاتِـهِـم وَرَحَـى المَـنِـيَّـةِ تَـطْـحَـنُ
مَــا دُونَ دَائِــرَةِ الــرَّدَى حِـصْـنٌ لِـمَـنْ يَـتَـحَـصَّـنُ

● «وعن سلمة بن سعيد، قال: كان هشام الدستوائي إذا ذكر الموت يقول: القبر، وظلمة القبر، ووحشة القبر، فلما مرّ بعض إخوانه بجنبات قبره، فقال: يا أبا بكر صرت والله إلى المحذور.

● وعن امرأة هشام الدستوائي، قالت: كان هشام إذ طفئ المصباح غشيه من ذلك أمر عظيم، فقلت له: إنه ليغشاك أمر عظيم عند المصباح إذا طفئ، قال: إني أذكر ظلمة القبر، ثم قال: لو كان سبقني إلى هذا أحد من السلف لأوصيت إذا مت أن أجعل في ناحية من داري، قال: فما مكثنا إلا يسيرًا حتى مات، قال: فمرّ بعض إخوانه بقبره، فقال: يا أبا بكر صرت والله إلى المحذور.

● وعن جمعة جارة هشام الفردوسي، قالت: كان هشام إذا رجع من جنازة لم يتعش تلك الليلة، وكان لا ينام إلا في بيت فيه سراج، قالت: فطفئ سراجه ذات ليلة فخرج هاربًا، فقيل له: ما شأنك؟ قال: ذكرت ظلمة القبر.

● وعن خالد بن خِداَش، قال: كنت أقعد إلى وسيم البخلي عم قتيبة وكان أعمى، وكان يحدث، ويقول: أواه القبر وظلمته، واللحد وضيقه، وكيف أصنع؟ ثم يغمى عليه، ثم يعود ويحدث، ويصنع مثل ذلك، مرارًا حتى يقوم.

● وروى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن وهيب بن الورد قال: انظر ابن

مطيع ذات يوم إلى داره فـأعجبه حسنها، فبكى، ثـم قال: واللَّه لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضـيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديدًا، حتى ارتفع صوته.

● وبإسناده عن الفـيض بن إسحاق، قال: قال لي الفضـيل بن عياض: أرأيت لو كانت لك الدنيا، فقيل لك: تـدعها ويوسع لك في قبرك، ما كنت تفعل؟ قال: وقال فضيل: أليس تموت وتخرج من أهلك ومالك، وتصير إلى القبر وضيقه وحدك، ثم قال: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق ١٠]، ثم قال: إن كنت لا تفعل هذا، فما في الأرض دابة أحمق منك.

● وعن مـحمد بن حـرب المكي، قـال: قدم علـينا أبو عـبد الرحـمن المعمري العابد، فاجتمعنا إليـه، وأتاه وجوه أهل مكة، قال: فرفع رأسه فلما نظر إلى القـصور المحدقة بالكعبـة، نادى بأعلى صوته: يا أصـحاب القصور المشيدة، اذكروا ظلمـة القبور الموحشة، يا أهل النعيـم والتلذذ، اذكروا الدود والصديد وبلى الأجسام في التراب، قال: ثم غلبتاه عيناه فنام[١].

● وقـال ابن أبـي الدنـيا فـي كتـاب «الـعزلـة»: حدثـنا الحـسين بـن عبد الرحـمن، عن رجل قال: دخلت علـى رجل بالمصيصة في بـيت، فيه فرسه وعلـفه، فقلت: أما تضيـق نفسك من هذا؟ فبـكى، وقال: إذا ذكرت القبر وضيقه وظلمته اتسع هذا عندي، ولهيت عن غيره.

وذكر بإسنادٍ له، أن سـعيد بن عبد العزيز دخل علـى سليمان الخواص، فقال له: ما لي أراك في الظلمة؟ قال: ظلمة القبر أشد»[٢].

* أبلغ العظات النظر إلى محلة الأموات:

● عن ميمون بن مهران، قال: قـال أبو الدرداء ﷺ: إن لكم في هاتين

---

(١) كذا، ولعلها: فقام.

(٢) «أهوال القبور» لابن رجب ص(١٦٧ ـ ١٦٩).

الدارين لعبرة، تزورونهم ولا يزورونكم، وتنتقلون إليهم ولا ينتقلون إليكم، يوشك أن تستفرغ هذه ما في هذه.

● وعن الحسن أن عثمان بن أبي العاص، كان في جنازة، فرأى قبراً مخسوفًا، فقال لرجل من أهله: يا فلان تعال انظر إلى بيتك الذي هو بيتك. فجاء فقال: ما أرى بيتي فيه طعام ولا شراب ولا ثياب. قال: فإنه بيتك. قال: صدقت. قال: فرجع فقال: واللَّه لأجعلنَّ ما في بيتي هذا في بيتي ذاك. قال الحسن: هو واللَّه التشدد أو الهلكة، واللَّه لتصبرن أو لتهلكن.

وفي رواية قال: أراه بيتًا ضيّقًا يابسًا مظلمًا، ليس فيه طعام ولا شراب ولا زوجة، وقد تركت بيتًا فيه طعام وشراب وزوجة، قال: فإن هذا واللَّه بيتك. قال: صدقت، أما واللَّه لو قد رجعت نقلت من ذلك إلى هذا.

● وعن ابن شوذب، قال: اطلعت امرأة إلى قبر، فرأت اللحد، فقالت لامرأة معها: ما هذا؟ يعني: اللحد. قالت: هذا كندوج[1] العمل. قال: وكانت تعطيها الشيء، فتقول: اذهبي فضعي هذا في كندوج العمل.

● وعن الحسن أنه مر على مقبرة فقال: يا لهم عسكر ما أسكتهم، وكم فيهم من مكروب.

● وعن الفضل الرقاشي، أنهم كانوا إذا ذَكَّروا زُهداً في الدنيا، يقول: مررت بالمقابر فوقفت فناديت: يا أهل الشرف والغناء والتباهي، يا أهل البأس والأمر والنهي والنجدة والأجر والدخول، يا أهل المسكنة والحاجة والفاقة، ويا أهل النسك والإخبات والإنابة والاجتهاد، فما ردّت عليّ فرقة منهم، ولعمري إن لم يكونوا أجابوا جوابًا لقد أجابوا اعتباراً.

---

(١) الكندوج: صومعة من خشب يختزن فيه القمح.

• وعن مالك بن دينار قال: خرجت أنا وحسان بن أبي سنان نزور المقابر، فلمّا أشرف عليها، سبقتهُ عبرته، ثم أقبل عليَّ، فقال: يا أبا يحيى! هذه عساكر الموتى، يُنْتَظَر بها من بقي من الأحياء، ثم يُصَاح بهم صيحة، فإذا هم قيام ينظرون، فوضع مالك يده على رأسه، وجعل يبكي.

• وعن أبي عاصم الحيطي، قال: كنت أمشي مع محمد بن واسع، فأتينا المقابر، فدمعت عيناه، ثم قال: يا أبا عاصم لا يغرنك ما ترى من خمودهم، فكأنك بهم قد وثبوا من هذه الأجداث، من بين مسرور ومهموم.

• وعن ابن السماك قال: لا يغرنّك سكوت هذه القبور، فما أكثر المغمومين فيها، ولا يغرنك استواؤها فما أشد تفاوتهم.

• وعن أبي حازم الأعرج، أنه شهد جنازة، فوقف على شفير القبر، فجعل ينظر إليه، ثم رفع رأسه، فقال لبعض أصحابه: ما ترى؟ قال: أرى حفرة يابسة، وأرى جنادل. قال أبو حازم: أما واللَّه لتحمدنه لنفسك، أو لتكونن معيشتك فيه معيشة ضنكًا. فبكى بكاءً شديدًا.

• وعن حسين الجعفي، قال: أتى رجل قبرًا محفورًا، فاطلع في اللحد، فبكى بكاءً شديدًا، واشتد بكاؤه. قال: واللَّه أنت بيتي حقًّا، واللَّه لئن استطعت لأعمِّرنَّك.

• وكان العمري الزاهد يلازم المقابر، ومعه كتاب لا يفارقه، فقيل له في ذلك، قال: ما شيء أوعظ من قبر، ولا آنس من كتاب، ولا أسلم من الوحدة.

• وعن عطاء السلمي، أنه كان إذا جن عليه الليل خرج، فوقف على القبور، ثم يقول: يا أهل القبور متم فواموتاه. ويبكي ثم يقول: يا أهل القبور عاينتم ما عملتم، فوا عملاه. ثم يبكي، فلا يزال كذلك حتى يصبح.

● وعن عيسى بن أحمد، قال: كان الأسود بن كلثوم يخرج إلى المقابر إذا هدأت العيون، فيقول. يا أهل الغربة والتربة، يا أهل الوحدة والبلى. ثم يبكي حتي يكاد يطلع الفجر، ثم يرجع إلى أهله.

● وعن ثابت البناني، قال: دخلت المقابر، فقلت: يا أهل القبور، فلم يجبني أحد. ثم قلت: يا أهل القبور، فلم يجبني أحد. ثم أجاب عقلي: نحن مثلك كنا وكما نحن تكون.

● وقال أبو محرز الطفاوي: كَفَتْك القبور مواعظ الأمم السالفة.

● وروى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن محمد بن صالح التمار، قال: كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام، فيمر بي، فاتبعته ذات يوم، وقلت: واللَّه لأنظرن ما يصنع. قال: فقنع رأسه وجلس إلى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى رحمته. قال: ظننت أنه قبر بعض أهله. قال: فمر بي مرة أخرى، فاتبعته، فقعد إلى جنب قبر غيره، ففعل مثل ذلك. قال: فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلت: إنما ظننت أنه قبر بعض أهله. قال فقال محمد: كلهم أهله وإخوانه، إنما هو رجل يحرِّك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة. قال: ثم جعل محمد بن المنكدر يمر بي فيأتي البقيع، فسلمت عليه ذات يوم، فقال: ما نفعتك موعظة صفوان؟.

قال: فظننت أنه انتفع بما ألقيت إليه منها.

● وعن مطرف الهذلي، قال: كانت عجوز متعبدة في عبد القيس، فعوتبت في كثرة إتيانها القبور، فقالت: إن القلب القاسي إذا جفى لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظر إليهم قد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المعفرة، وإلى تلك الأجسام البالية المتغيرة، وإلى تلك الأكفان الدنسة، فيا له من منظر.

سلامٌ على أهلِ القبورِ الدَّوارِسِ ... كأنَّهم لم يجلسوا في المَجَالسِ
ولم يشربوا من باردِ الماءِ شُرْبَةً ... ولم يأكلوا من بَيْن رَطْبٍ ويَابِسِ
ألا خَبِّرُوني: أَيْنَ قبرُ ذليلكم ... وقبرُ العزيزِ المادح المتمارِسِ

● وسمع بكر العابد امرأة عند قبر تقول: وا عمراه ليت شعري بأي خديك بدأ البلى، وأي عينيك سالت قبل الأخرى. فخر بكر مغشيًّا عليه. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الموت».

● وروى فيْ كتاب «الخائفين» عن محمد بن الحسين، عن عبيد اللَّه بن موسى، قال: كان الحسن بن صالح إذا صعد المنارة ـ يعني ليؤذن ـ أشرف على المقابر، فإذا نظر إلى الشمس تحوم على القبور صرخ حتى يسقط مغشيًّا عليه، فيحمل ويُنزل به.

وشهد يومًا جنازة، فلما قرب الميت ليدفن نظر إلى اللحد فارفض عرقًا، ثم مال، فغشي عليه، فحمل على سرير الميت، فَرُدّ إلى منزله.

● وذكر بإسناده عن عيسى بن يونس، وذكر عنده الحسن بن صالح فقال: قل ما كنت أجيء في وقت صلاة إلا رأيته مغشيًّا عليه، ينظر إلى المقبرة فيصرخ ويغشى عليه.

● وبإسناد له، عن عمر بن درهم القريعي، دخل المقابر وهو معصوب العينين، وابنه يقوده، فوطيء على قبر، فقال: يا بني أين أنا؟ قال: في الجبان يا أبتاه. قال: هاه. ثم خر ميتًا. فحمل إلى أهله من المقابر ميتًا، فَغُسِّل، ثم رد إلى المقابر، فدُفِنَ.

● وروى في كتاب «القبور» بإسناد له، أن امرأة بالمدينة كانت تزهو، فدخلت يومًا المقابر، فرأت جمجمة، فصرخت، ثم رجعت مُنِيبَة، فدخل

عليها نساؤها، فقلن: ما هذا؟ فقالت:

بكى قلبي لذكر الموت لما رأيت جماجمًا جَوف القبور

ثم قالت: أخرجن عني، فلا تأتين منكم إلا امرأة ترغب في عبادة اللَّه ـ عز وجل ـ، ثم أقبلت على عبادة اللَّه تعالى حتى ماتت ـ رحمها اللَّه تعالى ـ.

وبإسناده، عن عنبسة الخواص، أن رجلاً من الصدر الأول دخل المقابر، فمر بجمجمة بادية من بعض القبور، فحزن حزنًا شديدًا، ثم واراها، ثم التفت فلم ير إلا القبور، فحزن حزنًا شديدًا فحدّث نفسه، فقال: لو كشف لي عن بعضهم فسألته عما رأى. قال: فَأُتِيَ في منامه، فقيل له: لا تغتر بتشييد القبور من فوقهم، فإن القوم قد بليت خدودهم في التراب، فمن بين مسرور ينتظر ثواب اللَّه ـ عز وجل ـ، وبين مغمومٍ آسفًا على عقابه، فإياك والغفلة عما رأيت، فاجتهد الرجل بعد ذلك اجتهادًا شديدًا، حتى مات ـ رحمه اللَّه تعالى ـ»[1] .

● وعن سلمة البصري، قال: رأيت بزيغ بن مسرور العابد في منامي، وكان كثير الذكر للَّه تعالى، كثير الذكر للموت، طويل الاجتهاد، قال: قلت: كيف رأيت موضعك؟ فقال:

ولَيْس يعلم ما في القبرِ داخله إلا الإله وساكن الأجداث

ثم ولّى وتركني.

● وعن روح بن سلمة الورّاق، قال: رأيت إبراهيم المحكمي في منامي، فقلت: في أي الحالات أنت في الآخرة؟ قال: فبكى، ثم قال: ما أطول غموم الموتى في قبورهم. قلت: فأنت كيف حالك؟ قال: خير حال صرت

---

(١) «أهوال القبور» ص(١٨٠ ـ ١٨٥).

والله إلى رضا ربي ورضوانه بفضله علـيَّ ومنِّه، قال: وكان إبراهيم قد صام حتى اسود.

● وروى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن الحسن، قال: مات أخ لنا، فلما وُضِع في القبر، جاء صلة بن أشيم حتى أخذ بناحية الثوب، ثم قال:

إن تَنْجُ من ذي عَظيمة … وإلا فإنِّي لا أَخَالَكَ ناجيا

*** أخي: الموت أول وارد عليك، والقبر أقرب منك إليك:**

فاستعد لسفرك، وتأهب لرحيلك، وحول جهازك من المنزل الذي أنت عنه ظاعن إلى المنزل الذي أنت فيه مقيم، ولا تغتر بما اغتر به البطالون قبلك من طول آمالهم، فقصروا عن ربهم وزادهم، فندموا عند الموت أشد الندامة، وأسفوا على تضييع العمر أشد الأسف، فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا حمدوا أنفسهم على التقصير. أنقذك الله من شر ما وافى به المغبونون مليكهم يوم القيامة، أي أخي: بادر ثم بادر.

● ووجد على قبر مكتوب:

وقفتُ على الأحبَّة حين صفت … قبورهم كَأَفْرَاس الرهانِ

فلما أن بكيت وفاضَ دمعي … رَأَتْ عيناي بينهموا مكاني

● وعلى قبر آخر:

أنا في التراب مقيلي … ما لي الأركان جمعًا

لو ترى أمي رسومي … لذرت بالدم دمعًا

● وقُرِئَ على قبرٍ آخر بالبصرة:

ستعرض عن ذِكْري وتنسَى مودّتي … ويحدث بعدي للخليل خليل

إذا ما نقضت يومًا من العيش مدتي … فإن غناء الباكيات قليل

• وقرئ على قبر بالأيلة:

أنا البعيد القريب الدَّار منظره ... بين الجنادل والأحجار مرهون

• وقرئ على قبر:

أنا في القبر وحيدٌ قد تبرَّأ الأهلُ مني ... أسلموني ذنوبي خبت إن لم يعف عني

• وأوصى بعض الوزراء أن يكتب على قبره:

أيها المغرور في الدنيا بعز يقتنيه ... وبأهلٍ وبمال وبقصر تبتنيه

كم عليها قد سحبناه ذيل سلطان وقيه ... يحسب الأفلاك تجري بخلود ترتجيه

إذا طوانا الموت طيًّا ... فاعتبر ما نحن فيه

• وُقرئ على قبر:

أما ترونْ محلي ... غدًا تصيرون مثلي

أبلى التراب شبابي ... وكلكم سوف يبلى

سبيلكم كسبيلي ... سبيل من كان قبلي

• وأنشد أبو السمح الطائي هذه الأبيات:

إذا أصحاب قبري ودعوني ... وراحوا والأكف بها غبار

وغودر أعظمي رهنًا بقبري ... تهاداه الجنائب والقطار

مقيمًا لا يجاورني صديق ... بأرضٍ لا أزور ولا أزار

فذاك النأي لا الهجران شهرًا ... وشهرًا ثم تجتمع الديار

• رجع ابن السمّاك من دفن ميّت فأنشأ يقول:

تمرّ أقاربي جنبات قَبْرِي ... كأنّ أقاربي لم يعرفوني

وذُو الميراث يقتسمون مالي ... ولا يثنون إن جَحَدُوا دُيُونْي

وقد أخذوا سهامهم وعَاشُوا ... فيا للّه ما أَسَرْعَ ما نسوني

• ولما انصرف الناس من جنازة داود الطائي، أنشد ابن السماك:

انصرف الناس إلى دورهم وغودر الميت في رمسه
مرتهن النفس بأعماله لا يرتجى الإطلاق من حبسه
لنفسه صالح أعماله وما سواه فعلى نفسه

• قال أبو جعفر القرشي:

رحلتم وخليتم اللذات فيها لأهلها وكنتم زمانًا تغتدون فنونها
وكنتم أناسًا قبلنا مثل ما نرى تظنون بالدنيا وتستحسنونها
وكم صورة تحت التراب لسيد وكان حريصًا جاهدًا أن يصونها
وما زالت الدنيا محل لأرحل تجوس المنايا سهلها وحزونها
وقد كان في الدنيا قرون كثيرة ولكن ريب الدهر أفنى قرونها
وللناس آجال قصار ستنقضي وللناس أرزاق سيستلمونها

* * *

• وقال الثقفي:

أما ترى الموت ما ينفك مختطفًا من كل ناحية نفسًا فيحويها
قد نُغِّصت أملاً كانت تؤمله وقام في الحي باكيها وناعيها
وأسكنوا الترب تبلى فيه أعظمهم بعد النضارة ثم اللَّه يحييها
وصار ما جمعوا منها وما ادخروا بين الأقارب يحويه أدانيها
فامهد لنفسك في أيام مهلتها واستغفر اللَّه ما أسلفته فيها

• وقال آخر:

قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها للَّه درك ماذا تستر الحفر
ففيهمو لك يا مغرور موعظة وفيهمو لك يا مغتر معتبر

● ولابن المعتـــز:

وجيـــران صدق لا تـزاور بـيـنـهـم سوى قرب بعض في المحلة من بعض
كـأن خواتـيـمـًا من الـطـين فـوقـهـم فـلـيس لـهـا حتـى الـقـيـامة من فـض

● ولأبي العتاهية:

رويـدك يـادي الـقـصـر في شرفـاتـه فـإنـك عـنـه تـسـتـحـث وتـزعـج
ولا بـد من بـيـت انـقـطـاع ووحشـة وإن غرك البيت الأنيـــق المـدبـج

● ولغيـــره:

ولقد علـمت بأن قـبـــري حفرة غـبـراء يـحـمـلـنـي إلـيـهـا شرجـع
تـبـكـي بـنـاتـي شجـوهـن وزوجـتـي والأقـــربـون إلـيّ ثـم يـصـدعُـوا
وتـركـت فـي غـبـراء يـكـره وردهـا تـسفـي عـلـى الـريـــح حين أودع
إن الحـوادث تـخـتـرمـن مـنـيـتـي وكـأنما عمر الفتى في أهله مستودع
يسعى ويجمـــع جاهدًا مستهـتـرًا جدًّا وليس يأكل ما يجمع مضجع
حـتـى إذا وافـى الحـمـــام لـوقـتـه ولـكـل جـنـب لا أبـالـك مـصـرع

● ولآخر:

قِف بـالقبـــور وقلْ على ساحاتـها مَنَ مـنكـم المغمـــور في ظُلُمَاتـهـا
ومـن المكـرّم منـكـم فـي قـعـرهـــا قـد ذاق بـرد الأمـن مـن روعـاتـهـا
أمـا الـسـكـون لـذي الـعيـــون فـواحـد لا يـسـتـبـين الـفـضـل في درجـاتـهـا
لـو جـاوبـوك لأخـبـروك بـألـسـنٍ تـصـف الحـقـائـق بـعـد من حـالاتـهـا
أمـا المـطـيـع فـنـازل فـي روضـة يـفـضـي إلـى مـا شـاء مـن دوحـاتـهـا
والمجـرمُ الـطـاغـي بـهـا مـتـقـلـبُ فـي حـفـرة يـأوي إلـى حـيّـاتـهـا
وعـقـارب تـسـعـى إلـيـه قـروحـه فـي شـدّة الـتـعـذيـب مـن لـدغـاتـهـا

* * *

● ولله در القائل:

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظَّمُ والمحتقرْ

وأين المُدلّ بسلطانه ... وأين المُزَكّى إذا ما افتخرْ

تفانَوْا جميعًا فما مخبر ... وماتوا جميعًا ومات الخَبَرْ

تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائلي عن أناسٍ مضَوْا ... أما لكَ فيما ترى معتَبَرْ

● ولآخر:

عُدمت الحياة ولا نلتها ... إذا كنتَ في القبر قد ألحدوكا

فكيف أذوق لطعم الكرى ... وأنت بيمناك قد وسَّدُوكا

● ولآخر:

كم ببطن الأرض ثاو ... من وزير وأمير

وصغير الشان عبده ... خامل الذكر حقير

لو تأملت قبور الـ ... ـناس في يوم قصير

لم تميزهم ولم ... تعرف غنيًّا من فقير

● وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه قرأ على قبرٍ:

ما أحد أكرم من مفرد ... في قبره أعماله تونسه

منعم يلتذ في روضة ... زينها اللَّه فهي مجلسه

● ولبعض المتقدمين:

تزود قريبًا من فعالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل

وإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن ... بغير الذي يرضى به اللَّه تشغل

فلن يصحب الإنسان من بعد موته ... إلى قبره إلا الذي كان يعمل

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلاً عندهم ثم يرحل

يا قبـــر ما أسكن ظاهرك
وفي داخلك الدواهي

روى ابن أبي الدنيا بإسناده أن أبا الدرداء مـرّ بين القبور، فقال: يا بيوت ما أسكن ظواهرك وفي داخلك الدواهي.

* **أخـي**: قد وصفنا ظاهر القبور، وهي أفظـع شيء بسكونها وصمتها، وما يعرف الناس مـن بلى الأجسام وصديدها وفعل الدود فيـها.. فما الظن بداخلها:

- **ضمتها.**
- **فتنتها وسؤال الملكين فيها.**
- **عذابها.**
- **نعيمها.**

وسنفرد لهذا قدرًا كافيًا ونفصل فيه في فصل «عقيدة السلف السادات في القبر والموت والسكرات» ونمر هنا عليه مرور الكرام:

ضمّـــة القبـــــر

ضمة القـبر لا ينجو منها أحـد، صالحًا كان أو عاصيًا، صـغيرًا كان أو كبيرًا.

وضمة القبر هذه غير عذاب القبر.

- قال رسول اللَّه ﷺ عن سعد بن معاذ رضي الله عنه:

«هذا الذي تحـرّك له العرش، وفُتـحت له أبواب السمـاء وشهده سبعـون ألفًا

من الملائكة، لقد ضُمَّ ضمّة ثم فرج عنه»[١] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : **«إن للقبر ضغطة، لو كان أحد ناجيًا منها لنجا سعد بن معاذ»**[٢] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : **«لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»**[٣] .

● وأخرج ابن أبي الدنيا عن محمد التيمي قال:

«كان يُقال: إن ضمة القبر، إنما أصلها أنها أمهم، ومنها خُلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردَّ اللَّه تعالى أولادها، ضمتهم ضم الوالدة التي غاب عنها ولدها، ثم قدم عليها، فمن كان للَّه مُطيعًا، ضمتهُ برفقٍ، ومن كان للَّه عاصيًا، ضمته بعنفٍ، سخطًا منها عليه»[٤] .

فتنة القبر وسؤال الملكين

فتنة القبر وسؤال الملكين ثابت، وأخباره متواترة لا ينكره إلا زنديق مارق يقدم العقل على النقل، ويطعن في الثابت من دين اللَّه عز وجل.

وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، وهي عظيمة في هولها وخطرها تقرب من فتنة الدجال أعظم فتنة.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قول رسولنا ﷺ : «... **ولقد**

---

(١) **سنده صحيح على شرط مسلم**: رواه النسائي، وقال الألباني في «تحقيق المشكاة» (١/ ٤٩): سنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥/ ٥٦).

(٤) «بشرى الكئيب» للسيوطي ص(٥٨).

أوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم، مثل أو قريبًا من فتنة المسيح الدّجال...» الحديث.

● بأبي وأمي رسول اللَّه ﷺ من حدّث أمته وبيّن لها ما تحتاجه حتى لون الملكين، ولون عيونهما، واسمهما.

«أتاه ملكان أسودان، أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير».

أزرقان أي: لون عيونهما.

● يجلس المؤمن الصالح في قبره غير فزع قبل السؤال، أما الرجل السوء فإنه يجلس في قبره فزعًا مشعوفًا[١] :

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت يهودية استطعمت على بابي، فقالت: أطعموني أعاذكم اللَّه من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر، قالت: فلم أزل أحبسها حتى جاء رسول اللَّه ﷺ، فقلت: يا رسول اللَّه، ما تقول هذه اليهودية؟ قال: **«وما تقول؟»** قلت: تقول: أعاذكم اللَّه من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر، قالت عائشة: فقام رسول اللَّه ﷺ ورفع يديه مدًّا يستعيذ باللَّه من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر، ثم قال: **«أما فتنة الدجال فإنه لم يكن نبي إلا حذر أمته، وسأحدثكم بحديث لم يحذره نبي أمته: إنه أعور، وإن اللَّه ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن، فأما فتنة القبر فبي يُفتنون وعني يسألون، فإذا كان الرجل الصالح، أُجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف، ثم يقال له: فما كنت تقول في الإسلام؟ فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول اللَّه جاء بالبينات من عند اللَّه فصدقناه، فيفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال له: انظر إلى ما وقاك اللَّه،**

---

(١) الشعف: الفزع حتى يذهب بالقلب.

ثم تفرج له فرجة إلى الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء اللَّه، وإذا كان الرجل السوء، أُجلس في قبره فزعًا مشعوفًا، فيقال له: فما كنت تقول؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا، فيفرج له فرجة إلى الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف اللَّه عنك، ثم يفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، ويقال: هذا مقعدك منها، على الشك كنت وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء اللَّه ثم يعذب»[1] .

* تثبيت اللَّه للصالحين في القبر عند السؤال:

• قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

• عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال:

«المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه؛ فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»[2] .

• «عن طاووس: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا اللَّه ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾، المسألة في القبر.

• وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾، في القبر»[3] .

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح، صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأصحاب السنن.

(٣) «تفسير الطبري» (١٦/ ٦٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٢١).

● وانظر بربك إلى هـذا الأثر الطيب في رد عقول الصالحـين عليهم في القبر وجواب عمر ﷺ الجميل.

عن عبد اللَّـه بن عمر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ ذكر فتّان الـقبر، فقال عمر: أتُرَدُّ علينا عقولنا يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«نعم كهيئتك اليوم»**، فقال عمر: بفِيهِ الحجـر[1].

ومعنى بفيه الحجر: أي: بفم الملـك الحجر، قالها عمر بن الخطاب ﷺ حَسُن ظنه بربه على ما سيكون عنده من حسن جواب.

والحمد للَّه أن حَسُن هذا الحديث، ويا خالق عمر سبحانك.. هذا عُمر الإسلام.. وهو من الدين السمع والبصر ـ هو والصديق ـ.

● يا طيب كرامة المؤمن في قبره حين ينادي مناد في السؤال عند سؤاله: **«أن صدق عبدي»**.

● ويا طيب مثواه حين يقول الملكان: **«قد كنا نعلم أنك تقول»** كما جاء في حديث أبي هريرة، وعنه أيضًا: **«يُقال له: صدقت، علـى هذا عشتَ، وعليه مت، وعليـه تبعث»**، أو **«على ذلك حييت، وعلى ذلـك مت، وعليه تُبعث إن شاء اللَّه»**.

● **وأما الكافر أو المنافق:** فيقال له حين يقول لا أدري: **«قد كنا نعلم أنك تقول ذلك»، فيُقال له: لا دريت ولا تلوت». «علـى الشك كنت، وعليه مت وعليه تبعث إن شاء اللَّه»**.

● **«وينادي مناد من السماء: أن كذب»**.

● قـــال ﷺ: **«إن الميت تحضره الملائكة، فـإذا كان الرجل صـالحًا قال: اخرجي أيـتها النفس الـطيبة كانـت في الجسد الطـيب، اخرجي حميـدة، وأبشري**

(١) «صحيح الترغيب والترهيب»/ مجلد ٤ بسند حسن.

بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال له ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقول: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها اللَّه تبارك وتعالى. فإذا كان الرجل السوء، قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح في قبره، غير فزع ولا مشعوف، ثم يقال له: فيم كنت، فيقول: كنت في الإسلام، «فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول اللَّه ﷺ جاءنا بالبينات من عند اللَّه فصدقناه، فيقال له: هل رأيت اللَّه؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى اللَّه، فيفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال له: انظر إلى ما وقاك اللَّه تعالى، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها، وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء اللَّه، ويجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مشعوفًا فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته. فيفرج له فرجة قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف اللَّه عنك، ثم يفرج له فرجة إلى النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء اللَّه»[1] .

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٦٨)، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» أيضًا (١٨٨/٤).

• من النعيم في القبر رؤية المؤمن النار التي وقاه اللَّه منها، ورؤية مقعده من الجنة، وهو في قبره، واستمرارية ذلك.

استمرارية عرض مقعد المرء من الجنة، أو النار في القبر.

• قال سبحانه: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٦].

• عن ابن عمر ﷺ، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه يوم القيامة**»[١] .

• ومن عذاب الكافر في القبر تُفرج فرجة له قِبَل الجنة يرى ما صرف اللَّه عنه من نعيم الجنة، ويرى مقعده من النار.

*** ومن كرامة المؤمن في قبره:**

• التنوير له في قبره.

• الفسح له في قبره.

• نوم المؤمن في قبره أطيب نومة.

• شوقه لتبشير أهله.

كما سيأتي في حديث أبي هريرة[٢] .

«**ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم يُنوّر له فيه، ثم يُقال: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا**

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) انظر: «سكب العبرات» (٢/ ٦٤ ـ ٦٥).

أحب أهله إليه، حتى يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك».

● قال ﷺ: **«إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإن اللَّه هداه قال: كنت أعبد اللَّه، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد اللَّه ورسوله، فما يسأل عن شيء غيرها، فينطلق به إلى بيت كان في النار، فيقال له: هذا بيتك كان في النار، ولكن اللَّه عصمك ورحمك، فأبدلك به بيتًا في الجنة، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي، فيقال له اسكن، وإن الكافر إذا وضع في قبره، أتاه ملك فينتهره، فيقول له: ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت، فيقال: فما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: كنت أقول ما تقول الناس، فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين»[(١)].**

ويصور هذه الكرامة أبلغ تصوير شوق الصحابة في البرزخ - ممن استشهدوا في سبيل اللَّه تعالى لإخبار من لم يمت من إخوانهم بالكرامة المعدة للشهداء.

● قال ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل اللَّه أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال اللَّه تعالى: «أنا أبلغهم عنكم»[(٢)].**

---

(١) رواه أبو داود عن أنس، وهو في «صحيح الجامع» رقم (١٩٢٦).

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، وصححه الحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٢٠٥)، وفي «تحقيق المشكاة» (٣٨٥٣)، و«تحقيق شرح الطحاوية» (٥٣٨).

*** ومن نعيم المؤمن وكرامته في قبره أن قبره يُملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون:**

● قال ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، حتى أنه يسمع قرع نعالهم. أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ ـ لمحمد ـ فأما المؤمن فيقول: (أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله)، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك اللَّه به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا، ويفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون.

وأما الكافر أو المنافق، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطراق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه»[1].

*** ومن نعيم القبر للمؤمن أن أعماله الصالحة تُمثَّلُ له وتذود عنه وتؤنسه في قبره:**

مرّ في حديث البراء: «يمثل له رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرّك، أبشر برضوان من اللَّه، وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول له: وأنت فبشَّرك اللَّه بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح...».

● وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني في «الأوسط»، وابن حبان، وصححه، والحاكم، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) «متفق عليه».

قال رسول الله ﷺ :

«والذي نفسي بيده، إنه إذا وضع في قبره، أنه يسمع خفق نعالهم، حين يولون عنه، فإذا كان مؤمنًا، كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعلُ الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قبل رجليه، فيُؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ليس من قبلي مدخلٌ.

فيُؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ليس من قبلي مدخلٌ.

ويُوتى من قبل شماله، فيقول الصوم: ليس من قبلي مدخلٌ.

ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعلُ الخير أو المعروف: ليس من قبلي مدخلٌ.

فيُقال له: اجلس.

فيجلس، وقد مثلت له الشمسُ قد قربُت للغروب.

فيُقال له: أخبرنا عما نسألك؟

فيقول: دعوني أُصلي.

فيُقالُ: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألُكَ؟

فيقول: عم تَسألُوني؟

فيُقالُ له: ما تقول في هذا الرجلِ، الذي كان فيكم؟

فيقولُ: أشهدُ أنه رسول اللَّه، جَاءَنا بالبينات، من عند ربنا، فصدقنا، واتبعنا.

فيقال له: صدقتَ، على هذا حييتَ، وعلى هذا مت، وعليه تُبعثُ إن شاء اللَّه. ويُفتحُ له في قبره مد بصره، ويقالُ: افتحوا له بابًا إلى النار، فيُفتحُ له، فيقال: هذا منزلك، لو عصيت اللَّه. فيزداد غبطةً وسروراً. ويقال: افتحوا له بابًا إلى الجنة، فيفتح له، فيقال: هذا منزلك، وما أعدَّ اللَّه لك، فيزداد غبطة وسُروراً.

فَيُعاد الجسدُ إلى ما بدأ منه من التراب، وتُجعلُ روحه في النسيم الطيب وهي

طيرٌ خضرٌ، تعلق[1] في شجر الجنة»[2] .

● وأخرج أحمد عن أسماء ﷺ: عن النبي ﷺ قال:

«إذا أدخل الإنسان في قبره، فإن كان مؤمنًا، أحف به عمله: الصلاة والصوم، فيأتيه الملك من نحو الصلاة، فترده، ومن نحو الصيام، فيرده، فيُناديه: اجلس. فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟

قال: من؟ قال: محمدٌ.

فيقول: أشهد أنه رسول اللَّه ﷺ .

فيقول: ما يُدريك؟ أدركتهُ؟

قال: أشهد أنه رسول اللَّه.

قال: يقولُ: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تُبعثُ»[3] .

---

(١) تَعْلُقُ: تأكل، انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٨٩)، والنَسَمَة: هي الروح. انظر كتاب «الروح» لابن القيم ص(١٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٨٣)، وابن حبان رقم (٧٨١ ـ موارد الظمآن)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» رقم (٧٩)، وفي «الاعتقاد» ص(١٠٨)، وعبد اللَّه ابن الإمام أحمد في «السنة» رقم (١٣٨٠)، وهناد في «الزهد» (١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥) رقم (٣٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٩ و٣٨٠ و٣٨٠ ـ ٣٨١).

وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣١ ـ ٣٢) لابن المنذر، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) رقم (٢٦٥١)، وابن مردويه، وكذلك فعل الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤١٩ و٤١٣) وقال الحاكم عقبه: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٢): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن». وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز».

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣). وقد أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» جزءًا منه. قاله الهيثمي في «المجمع»: (٣/ ٥١)، والزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤١٩) و(٨/ ١١٩).

=

وكما جاء في فضل سورة «تبارك» وأنها المانعة من عذاب القبر.

*** ومن نعيم المؤمن في قبره تزاور الموتى.**

كما سيأتي.

*** ومن نعيم القبر صلاة المؤمن في قبره:**

كما مرّ في الحديث وسيوضحه شيخنا الألباني . . . وهذا نوع من الثواب والنعيم الذي يتفضل به المولى عز وجل على عباده.

وأخرج اللالكائي في «السنة» بسنده عن يحيى بن معين قال:

«قال لي حفارٌ: أعجبُ ما رأيت من هذه المقابر، أني سمعتُ من قبرٍ أنينًا كأنين المريض، وسمعتُ من قبر ـ والمُؤذن يؤذن ـ وهو يجيبه من القبر»[1].

*** ومن نعيم المؤمن في قبره كِسْوته:**

● أخرج عبد اللَّه بن أحمد في «زوائد الزهد» عن عبادة بن نسي قال:

«لما حضرت أبا بكرٍ الوفاةُ، قال لعائشة: اغسلي ثوبَي هذين، وكفنيني بهما، فإنما أبوك أحد الرجلين: إما مكسوًّا أحسن الكُسْوة، وإما مسلوبًا أسوأ السلب»[2].

= وقال الهيثمي: «رجال أحمد رجال الصحيح».

وقال الزبيدي: «وحديثها في الصحيح باختصار».

والحديث حسّنه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ٢١٥).

(١) عزاه إلى اللالكائي في «السنة» ابن رجب في «أهوال القبور» رقم (١١٨).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» ص(١٣٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٩٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» كما في «نصب الراية» (٢/ ٢٦٢)، وقال الحافظ ابن حجر في «الدراية» ص(١٤١): «إسناده صحيح». وأخرجه بلاغًا محمد بن الحسن الشيباني في «الآثار» رقم (٣٨٨).

● وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن أبي راشد:

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في وصيته:

«اقتصدوا في كفني، فإنه إن كان لي عند اللَّه خيرٌ أبدلني ما هو خيرٌ منه، وإن كنت على غير ذلك سلبني، وأسرع سلبي، واقتصدوا في حُفرتي، فإنه إن كان لي عند اللَّه خيرٌ، وسع لي قبري، مد بصري، وإن كنت على غير ذلك، ضيقه حتى تختلف أضلاعي»[(١)] .

● وأخرج سعيد بن منصور في «سننه»، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن أبي الدنيا، والحاكم في «المستدرك» عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال عند موته:

«ابتاعُوا لي ثوبين، ولا عليكم أن لا تتغالوا، فإن يُصب صاحبكم خيرًا، يُكسيني خيرًا منها، وإلا سلبها سلبًا سريعًا»[(٢)] .

● وأخرج ابن سعد في «الطبقات»، والبيهقي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: عند موته.

«اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يُتركا علي إلا قليلاً، حتى أُبدل بهما خيرًا منهما، أو شرًّا منهما»[(٣)] .

● وأخرج سعيد بن منصور عن عُديسة بنت أُهبان[(٤)] بن صيفي الغفاري رضي الله عنه صاحب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قالت:

«أوصانا أبي أن نكفنهُ في قميصٍ. قالت: فلما أصبحنا من الغد من يوم

---

(١) وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٨٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٨١).

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٤٠٣).

(٤) انظر: ترجمتها في «طبقات ابن سعد» (٨/ ٤٨١).

دفناهُ، إذا نحن بالقميص، الذي كفناهُ فيه على المشجب[١] »[٢] .

* ومن النعيم في القبر الفرش للمؤمن في قبره:

● وفي حديث البراء: «**فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة. وألبسوه من الجنة**».

واللَّه إن هذا الفراش وهذا اللباس من الجنة لا تقوم لهما الدنيا بما فيها ومن فيها. . . ولو لم يكن للعبد إلا هذا لكفاه. . . اللَّهم اجعل لنا من هذا الفراش، وهذا اللباس أحسنهما وأطيبهما والحظ الأوفر منهما.

● قال تعالى: ﴿ **فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴾ [الروم: ٤٤].

قال مجاهد: «في القبر»[٣] .

وعند ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: «يُسوّون المضاجع»[٤] .

قال ابن رجب في «أهوال القبور» رقم (٨٩):

«قال أحمد: فحدّثت به يحيى بن معين، قال: طوبى لمن كان له عمل صالح، يكون وطاءه في قبره.

---

(١) المشجب: خشبات موثقة توضع عليها الثياب.

(٢) وأخرجه الحارث، كما في «المطالب العالية» (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢) رقم (٧٢١).
وأخرجه أحمد مختصرًا، ولفظه: «عن ابنة أهبان أن أباها أمر أهله أن يكفنوه ولا يُلبسوه قميصًا، قالت: فأصبحنا والقميص على المشجب».
وأخرجه الطبراني، وقال الهيثمي: «فيه أبو عمر القسملي، قال الحسيني: لا يعرف، وإسناد الحارث جيد، خال منه، وسكت البوصيري عليه. انظر كلام الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي على «المطالب العالية».

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢١/ ٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٤) وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢١/ ٥٢).

● وعن أبي هريرة ﵁ قال: «يُقال للمؤمن في قبره: ارقد رِقْدَة المتقين»[(١)] .

*** ويُبَشَّر بصلاح ولده في قبره:**

أخرج ابن الدنيا عن مجاهد قال: «إن الرجل ليُبَشر بصلاح ولده في قبره»[(٢)] .

● قال ابن القيم:

الأرواح قسمان: مُنعَّمَة ومُعَذَّبَة.

فأما المعذبة فهي في شغل عن التزاور والتلاقي. وأما المنعمةُ المرسلة، غير المحبوسة، فتتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها، الذي هو على مثل عملها، وروح نبينا محمد ﷺ في الرفيق الأعلى.

● قال اللَّه تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ هذه المعية ثابتةٌ في الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي دار الجزاء، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة[(٣)] .

عذاب القبر حق لا ينكره إلا مارق

عذاب القبر حق جاءت فيه الآيات، والأحاديث المتواترة، وإنكار المتواتر كفر أكبر... فما بال الزنادقة والرعاع والمارقين يطعنون في الثوابت من دين اللَّه عز وجل... أظلمت الدنيا بزندقتهم وشكا ضوء النهار وظلام والمعقّيات

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، والبيهقي.

(٢) صححه ابن القيم في كتابه «الروح» ص(٢٠).

(٣) انظر: «الروح» ص(٢٦)، و«شرح الصدور» ص(٢٠٤ ـ ٢٠٥).

إلى ربهم هذا التطاول الفاجر على دينه... ردة ولا أبا بكر لها ولكن سينجلي الليل.

● قال القسطلاني في «إرشاد الساري» (٢/ ٤٦٠):

«قال في «مصابيح الجامع»: «وقد كثرت الأحاديث في عذاب القبر، حتى قال غير واحد: إنها متواترة، وإن لم يصحّ مثلها لم يصحّ شيء من أمر الدين».

وقد تكلمنا عن عذاب القبر باستفاضة في المجلد الثاني من هذا الكتاب من (صفحة ٤٧ حتى صفحة ١٢٥).

*** ومن عذاب القبر: ضيق القبر:**

في الحديث: «**وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون قولاً، فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبًا، حتى يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك**».

وفي حديث البراء: «**ويضيّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه**».

● **أيها الغافل**: هل لك طاقة بتحمّل هذا الضيق، وهذا الضنك وما بعده أشد وأضيق ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً** ﴾.

*** ومن عذاب القبر: أن يقال له كَذَبتَ:**

وفي الحديث: «**فينادي مناد من السماء: أن كذب**»

ولو لم يكن له من الحسرات إلا هذا لكفى... يُنادى من قبل ملك الملوك.. وتقطّع ما بينه وبين مولاه، وما بعد هذا أشدّ ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٥].

*** ومن عذاب القبر أن يُفرش له من النار:**

وفي الحديث:

«فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها»، وفي الحديث: **«ويمهد من فرش، فيقول: رب لا تقم الساعة»**.

● فراش من النار... يا ناعم الجسد... يا من تضره الشوكة وتؤذيه.. يا من تعوّد على الفراش الوثير... وبعد هذا ما هو أشد ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ فانج بنفسك...

*** ومن عذاب القبر أن يُضرب حتى يصير ترابًا ثم يعيده اللَّه كما كان:**

وفي الحديث: **«ثم يُقَيَّض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة! لو ضُرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابًا، ثم يعيده اللَّه كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين»**.

وفي الحديث: **«ثم يضرب بمطراق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»، «يسمعها الخلق غير الثقلين»**.

● قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن الموتى ليعذبون في قبورهم، حتى إن البهائم لتسمع أصواتهم»**[1].

● وقال ﷺ: **«استعيذوا باللَّه من عذاب القبر، إنهم يعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم»**[2].

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وكذا رواه أبو نعيم، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٧٧)، و«صحيح الجامع» رقم (١٩٦٥).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» عن أم مبشر، وكذا رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٤٤٤)، و«صحيح الجامع» (٩٤٢).

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن هذه الأمة تبتلي في قبورها، فلولا أن لا تدافَنوا**[(١)] **لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، تعوّذوا باللَّه من عذاب النار، تعوّذوا باللَّه من عذاب القبر، تعوّذوا باللَّه من الفتن ما ظهر منها وما بطن، تعوذوا باللَّه من فتنة الدجّال**»[(٢)] .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**استعيذوا باللَّه من عذاب القبر، استعيذوا باللَّه من عذاب جهنم، استعيذوا باللَّه من فتنة المسيح الدجال، استعيذوا باللَّه من فتنة المحيا والممات**»[(٣)] .

*** ومن عذاب القبر التِّنِّين الذي يُسَلَّط على الكافر في قبره يلسعه وينهشه ويخدشه:**

حدّث أبو السمح عن ابن جُحيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال:

«**إن المؤمن في قبره لفي روضة خضراء، ويُرْحب له قبره سبعون ذراعًا، ويُنَوَّر له كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيما أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أتدرون ما المعيشة الضنكة؟**»، قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه يُسَلَّط عليه تسعة وتسعون تِنِّينًا، أتدرون ما التِّنِّين: سبعون حيّة، لكل حيّة سبعة رؤوس يلسعونه، ويخدشونه إلى يوم القيامة**»[(٤)] .

---

(١) أي: لولا أن لا يدفن بعضهم بعضًا خوفًا من القبر وفرقًا.

(٢) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم عن زيد بن ثابت.

(٣) **صحيح**: رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي، والنسائي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صفة الصلاة» (١٦٣)، و«صحيح الجامع» (٩٤١).

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، في كتاب «الجنائز»، فصل في أحوال الميت في قبره =

ستة ألاف وتسعمائة وثلاثون حية لكل حية سبعة رؤوس إلى يوم القيامة.

*** ومن عذاب القبر تمثل أعمال السوء للفاجر والكافر في قبره:**

وفي الحديث: **«ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول: وأنت فبشّرك اللَّه بالشرّ من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، واللَّه ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة اللَّه سريعًا في معصية اللَّه فجزاك اللَّه شرًّا»**.

*** ذكر صنوف العذاب وأسباب عذاب القبر:**

وهذه سنذكرها بالتفصيل في «المجلد الثاني» من كتابنا هذا.

● **عن** أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«بينما رجل يتبختر يمشي في بُرديه، قد أعجبته نفسه، فخسف اللَّه به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[1].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم:

«بينما رجل يمشي في حلة تُعجبه نفسه، مُرَجّل جُمّته، إذ خسف اللَّه به

= (٧/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣) حديث رقم (٣١٢٢).

وإسناده حسن، فإن أبا السمح ـ وهو دراج ـ أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وهو هنا رواه عن ابن حجيرة، وهو عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني، قاضي مصر، أخرج له مسلم، وأصحاب السنن، ووثقه النسائي، وغيره.

وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٢٨)، و«الآجري» ص(٣٥٨)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٦٨). وأخرجه البزار، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٧، ٦٠٨)، وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، والحكيم الترمذي، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(١) رواه البخاري، ومسلم، ومعنى يتبختر: أي: يمشي متكبرًا معجبًا بنفسه.

الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[١]

● ولله در ابن المبارك حين يقول:

وكيف قرّت لأهل العلم أعينهم ... أو استلذوا لذيذ العيش أو هجعوا
والموت ينذرهم جهراً علانية ... لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا
والنار ضاحية لا بد موردهم ... وليس يدرون من ينجو ومن يقعُ
لينفع العلم قبل الموت صاحبه ... قد سال قومٌ بها الرجعى فما رجعوا[٢]

*** امتلاء قبور العصاة بالظُّلْمَة:**

● قال ﷺ: «**إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم**»[٣].

*** لطيفة:**

قال شقيق البلخي: «طلبنا ضياء القبور، فوجدناه في صلاة الليل، وطلبنا جواب منكر ونكير فوجدناه في قراءة القرآن، وطلبنا عبور الصراط، فوجدناه في الصوم والصدقة، وطلبنا ظل العرش، فوجدناه في الخلوة»[٤].

*** فائدة: ماذا يقول إذا مرّ بقبر كافر:**

● عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم.
جمته: الجمة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين، والترجيل أي: التسريح بالمشط.
يتجلجل: أي: يغوص في الأرض حين يُخسف به، والجلجلة: حركة مع صوت.
(٢) «ديوان ابن المبارك».
(٣) رواه أحمد عن أنس، ومسلم عن أبي هريرة.
(٤) «بشرى الكئيب» ص(٦٦) نقلاً عن «روض الرياحين» لليافعي.

فقال: إن أبي كان يصل الرحم وكان وكان فأين هو؟ قال: «**في النار**»، فكأنّ الأعرابي وجد من ذلك، فقال: يا رسول اللَّه فأين أبوك؟ قال: «**حيثما مررت بقبر كافر فبشِّره بالنار**»، قال: فأسلم الأعرابي بعد، فقال: لقد كلفني رسول رسول اللَّه ﷺ تعبًا: ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار».

● قال الشيخ الألباني: «وفي هذا الحديث فائدة هامة أغفلتها عامة كتب الفقه، ألا وهي مشروعية تبشير الكافر بالنار إذا مرّ بقبره، ولا يخفى ما في هذا التشريع من إيقاظ المؤمن وتذكيره بخطورة جرم هذا الكافر حيث ارتكب ذنبًا عظيمًا تهون ذنوب الدنيا كلها تجاهه ولو اجتمعت، وهو الكفر باللَّه عز وجل والإشراك به.

● وإن الجهل بهذه الفائدة مما أودى ببعض المسلمين أن يقصدوا زيارة بعض قبور من يسمونهم بعظماء الرجال من الكفار، ويضعون على قبورهم الأزهار والأكاليل ويقفون أمامها خاشعين محزونين. مما يشعر برضاهم عنهم وعدم مقتهم إياهم، مع أن الأسوة الحسنة بالأنبياء عليهم السلام تقضي خلاف ذلك كما في هذا الحديث الصحيح، واسمع قول اللَّه عز وجل: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا**﴾ الآية، هذا موقفهم منهم وهم أحياء، فكيف وهم أموات؟

وروى البخاري، ومسلم:

«**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذّبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم**، [وتقنّع بردائه وهو على الرحل]».

ورواه أحمد، والزيادة له.

وقد ترجم لهذا الحديث صديق حسن خان في «نزل الأبرار» ص(٢٩٣): «باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين، وبمصارعهم وإظهار الافتقار إلى اللَّه تعالى والتحذير من الغفلة عن ذلك»[1].

***

* أخي: دنا الفراقُ ولات حين تهرُّبٍ:

وَدَنَا الْفِرَاقُ وَلاَتَ حِينَ تَهَرُّبٍ ... أَيْنَ الْمَفَرُّ مِنَ الْقَضَاءِ الدَّانِي

وَالْتَفَّ صَحْبُكَ يَرْقُبُونَ بِحَسْرَةٍ ... مَّاذَا تَكُونُ عَوَاقِبُ الْحِدْثَانِ

واسْتَلَّ رُوحَكَ وَالْقُلُوبُ تَقَطَّعَتْ ... حُزْنًا وَأَلْقَتْ دَمْعَهَا الْعَيْنَانِ

فَاجْتَاحَ أَهْلَ الدَّارِ حُزْنٌ بَالِغٌ ... واجْتَاحَ مَن حَضَرُوا مِنَ الْجِيرَانِ

فَالْبِنْتُ عَبْرَى لِلْفِرَاقِ كَئِيبَةٌ ... والدَّمْعُ يَمْلأُ سَاحَةَ الأَجْفَانِ

وَالزَّوْجُ ثَكْلَى وَالصِغَارُ تَجَمَّعُوا ... يَتَطَلَّعُونَ تَطَلُّعَ الْحَيْرَانِ

وَالابْنُ يَدْأَبُ فِي جَهَازِكَ كَاتِمًا ... شَيْئًا مِّنَ الأَحْزَانِ وَالأَشْجَانِ

وَسَرَى الْحَدِيثُ وَقَدْ تَسَاءَلَ بَعْضُهُمْ ... أَوَ مَا سَمِعْتُمْ عَنْ وَفَاةِ فُلانِ

قَالُوا سَمِعْنَا وَالْوَفَاةُ سَبِيلُنَا ... غَيْرَ الْمُهَيْمِنِ كُلُّ شَيْءٍ فَانِي

وَأَتَى الْحَدِيثُ لِوَارِثِيكَ فَأَسْرَعُوا ... مِنْ كُلِّ صَوْبٍ لِلْحُطَامِ الْفَانِي

وَأَتَى الْمُغَسِّلُ وَالْمُكَفِّنُ قَدْ أَتَى ... لِيُجَلِّلُوكَ بِحُلَّةِ الأَكْفَانِ

وَيُجَرِّدُوكَ مِنَ الثِّيَابِ وَيَنْزِعُوا ... عَنْكَ الْحَرِيرَ وَحُلَّةَ الْكِتَّانِ

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٢٧ ـ ٢٨).

وَتَعُود فَرْدًا لَسْتَ حَامِلَ حَاجَةٍ ... مَنْ هَذِهِ الْدُنْيَا سِوَى الأَكْفَانِ

وَأَتَى الْحَدِيثُ لِوَارِثِيكَ فَأَسْرَعُوا ... فَأَتَوا بِنَعْشٍ وَاهِنِ الْعِيدَانِ

صَلُّوا عَلَيْكَ وَأَرْكَبُوكَ بِمَرْكَبٍ ... فَوْقَ الظُّهُورِ يُحَفُّ بِالأَحْزَانِ

حَتَّى إِلَى الْقَبْرِ الَّذِي قَدْ جَهَّزُوا ... وَضَعُوكَ عِنْدَ شَفِيْرِهِ بِحَنَانِ

وَدَنَا الأَقَارِبُ يَرْفَعُونَكَ بَيْنَهُمْ ... لِلحْدِ كَي تُمْسِي مَعَ الدِّيدَانِ

وَسَكَنتَ لَحْدًا قَدْ يَضِيقُ لِضِيْقِهِ ... صَدْرُ الْحَلِيمِ وَصَابِرِ الْحَيَوَانِ

وَسَمِعْتَ قَرْعَ نِعَالِهِمِ مِنْ بَعْدِ مَا ... وَضَعُوكَ فِي الْبَيْتِ الصَّغِيرِ الثَّانِي

فِيهِ الظَّلَامُ كَذَا السُّكُونُ مُخَيِّمٌ ... وَالرُّوحُ رُدَّ وَجَاءَكَ الْمَلَكَانِ

وَهُنَا الْحَقِيقَةُ وَالْمُحَقِّقُ قَدْ أَتَى ... هَذَا مَقَامُ النَّصْرِ وَالْخِذْلَانِ

إِن كُنتَ فِي الدُّنْيَا لِرَبِّكَ مُخْلِصًا ... تَدْعُوهُ بِالتَّوحِيدِ وَالإِيمَانِ

فَتَظَلُّ تَرْفُلُ فِي النَّعِيمِ مُرَفَّهًا ... بِفَسِيحِ قَبْرٍ طَاهِرِ الأَرْكَانِ

وَلَكَ الرَّفِيقُ عَنِ الْفِرَاقِ مُسَلِّيًا ... يُغْنِي عَنِ الأَحْبَابِ وَالأَخْدَانِ

فُتِحَتْ عَلَيْكَ مِنَ الجِنَانِ نَوَافِذٌ ... تَأْتِيكَ بِالأَنْوَارِ وَالرَّيْحَانِ

وَتَظَلُّ مُنشَرِحَ الْفُؤَادِ مُنَعَّمًا ... حَتَّى يَقُومَ إِلَى القَضَا الثَّقَلَانِ

تَأْتِي الْحِسَابَ وَقَدْ فَتَحْتَ صَحِيفَةً ... بِالنُّورِ قَدْ كُتِبَتْ وَبِالرِّضْوَانِ

وَتَرَى الْخَلَائِقَ خَائِفِينَ لِذَنْبِهِمْ ... وَتَسِيرُ أَنْتَ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ

وَيُظِلُّكَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِظِلِّهِ ... وَالنَّاسُ فِي عَرَقٍ إِلَى الأَذْقَانِ

وَتَرَى الصِرَاطَ وَلَيْسَ فِيهِ صُعُوبَةٌ ... كَالْبَرْقِ تَعْبُرُ فِيهِ نَحْوَ جِنَانِ

فَتَرَى الْجِنَانَ بِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا ... وَتَرَى الْقُصُورَ رَفِيْعَةَ الْبُنْيَانِ

طِبْ فِي رَغِيدِ الْعَيْشِ دُونَ مَشَقَّةٍ تَكْفِي مَشَقَّةُ سَالِفِ الأَزْمَانِ
وَالبَسْ ثِيَابَ الْخُلْدِ وَاشْرَبْ واغْتَسِلْ وَابْعَدْ عَنِ الأَكْدَارِ وَالأَحْزَانِ
سِرْ وَانْظُرِ الأَنْهَارَ وَاشْرَبْ مَائِهَا مِن فَوقِهَا الأَثْمَارُ فِي الأَفْنَانِ
وَالشَّهْدُ جَارٍ فِي الْعُيُونِ مُطَهَّرٌ مَّعَ خَمْرَةِ الْفِرْدَوْسِ وَالأَلْبَانِ
وَالزَّوْجِ حُورٌ فِي الْبُيُوتِ كَوَاعِبٌ بِيْضُ الْوُجُوهِ خَوَامِصُ الأَبْدَانِ
أَبْكَارُ شِبْهُ الدُّرِّ فِي أَصْدَافِهِ وَالْلُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ وَالْمَرْجَانِ
وَهُنَا مَقَرٌّ لاَّ تَحَوُّلَ بَعْدَهُ فِيهِ السُّرُورُ بِرُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ
أَمَّا إِذَا مَا كُنتَ فِيهَا مُجْرِمًا مُتَتَبِّعًا لِطَرَائِقِ الشَّيْطَانِ
ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ كَيْفَ تَحْتَمِلُ الأَذَى أَمْ كَيْفَ تَصْبِرُ فِي لَظَى النِّيرَانِ
فَإِذَا تَفَرَّقَ عَنْكَ صَحْبُكَ وَانْثَنى حُمَّالُ نَعْشِكَ جَاءَكَ الْمَلَكَانِ
جَاءآكَ مَرْهُوبَيْنِ مِنْ عَيْنَيْهِمَا تُرْمَى بِأَشْوَاظٍ مِنَ النِّيرَانِ
سَأَلاَكَ عَن رب قَدِيرٍ خَالِقٍ وَعَنِ الَّذِي قَدْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ
فَتَقُولُ لاَ أَدْرِي وَكُنتُ مُصَدِّقًا أَقْوَالَ شِبْهِ مَقَالَةِ الثَّقَلانِ
فَيُوَبِّخَانِكَ بِالْكَلاَمِ بِشِدَّةٍ وَسَيَضْرِبَانِكَ ضَرْبَةَ السَّجَّانِ
فَتَصِيحُ صَيْحَةَ آسِفٍ مُّتَوَجِّعٍ وَيَجِي الشُّجَاعُ وَذَاكَ هَوْلٌ ثَانِي
وَيَجِي الرَّفِيقُ فَيَا قَبَاحَةَ وَجْهِهِ فَكَأَنَّهُ مُتَمَرِّدٌ مِنْ جَانِ
وَتَقُولُ يَا وَيْلاَ أَمَا لِي رَجْعَةٌ حَتَّى أَحُلَّ بِسَاحَةِ الإِيمَانِ
لَوْ عُدتَّ لِلدُّنْيَا لَعُدتَّ لِمَا مَضَى فِي جَانِبِ التَّكْذِيبِ وَالْعِصْيَانِ[1]

---

(١) «الحياة البرزخية» ص(١٣٨).

*** توهّم نفسك في القبور، وعدّ نفسك من الموتى:**

توهم نفسك حين استطار قلبك فرحًا وسرورًا، أو ملئ حزنًا وعبرة. وبفترة القبر، وهول مطلعه. وروعة الملكين وسؤالهما فيه عن إيمانك بربك، فمثبت من اللَّه جل ثناؤه بالقول الثابت. أو متحير شاك مخذول.

فتوهم أصواتهما حين ينادیانك لتجلس لسؤلهما إياك ليوقفاك على مساءلتهما. فتوهم جلستك في ضيق لحدك. وقد سقطت أكفانك على حقويك. والقطنة من عينيك عند قدميك.

فتوهم ذلك، ثم شخوصك ببصرك إلى صورتهما وعظم أجسامهما، فإن رأيتهما بحسن الصورة، أيقن قلبك بالفوز والنجاة، وإن رأيتهما بقبح الصورة، أيقن قلبك بالهلاك والعطب.

فتوهم أصواتهما وكلامهما بنغماتهما وسؤالهما، ثم هو تثيب اللَّه إياك إن ثبتك، أو تحييره إن خذلك.

فتوهم جوابك باليقين، أو بالتحير، أو بالتلديد والشك.

وتوهم إقبالهما عليك إن ثبتك اللَّه عز وجل بالسرور وضربهما بأرجلهما جوانب قبرك بانفراج القبر عن النار بضعفك.

ثم توهم وهي تتأجج بحريقها، وإقبالهما عليك بالقول، وأنت تنظر إلى ما صرف اللَّه عنك، فيزداد لذلك قلبك سرورًا وفرحًا، وتوقن بسلامتك من النار بضعفك.

ثم توهم ضربهما بأرجلهما جوانب قبرك، وانفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها، وقولهما لك: يا عبد اللَّه انظر إلى ما أعد اللَّه لك، فهذا منزلك، وهذا مصيرك.

فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان وبهجة ملكها. وعلمك أنك صائر إلى ما عاينت من نعيمها وحسن بهجتها.

وإن تكن الأخرى، فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهار لك، ومن معاينتك الجنة، وقولهما لك: انظر إلى ما حرمك اللَّه عز وجل، ومعاينتك النار، وقولهما لك: انظر إلى ما أعد اللَّه لك، فهذا منزلك ومصيرك.

فأعظم بهذا خطرًا، وأعظم به عليك في الدنيا غمًّا وحزنًا؛ حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك؛ حتى تنقطع الأوصال، فتفنى عظامك، ويبلى بدنك، ولا يبلى الحزن أو الفرح من روحك، متوقعًا روحك، متطلعًا للقيام عند النشور إلى غضب اللَّه عز وجل وعقابه، أو إلى رضا اللَّه عز وجل وثوابه، وأنت مع توقع ذلك معروضة روحك على منزلك من الجنة أو مأواك من النار.

فيا حسرات روحك وغمومها! ويا غبطتها وسرورها! حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزليًّا واحدًا منفردًا بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على اللَّه عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم.

* * *

* وكنا عظامًا فصرنا عظامًا وكنا نقوت فها نحن قوت

أَيَا غافلاً غرَّهُ ما يفوتْ وألهاهُ حالٌ قليلُ الثبوتْ
تأَمَّلْ لِمَنْ بعد أُنْسٍ يَصُوتْ بَعُدْنا وإنْ جاورتنا البيوتْ
وجِئْنا بوعظٍ ونحنُ صموتْ

لقد نِلتُ من دهرنا رِفْعةً تقضَّتْ كبرقٍ مضى سرعةً
فهيهات ترجو لها رجْعةً وأصواتنا سكنت دُفعةً
كجهر الصلاةِ تلاهُ القنوتْ

بدا لي من العِزِّ وجهٌ شبابُ يُؤَمِّلُ سَيْبي وبأْسِي يُهابُ
فسَرعان مُزِّق ذاك الإهابُ ومَدَّتْ وقد أنكرتنا الثيابُ
علينا نسائجها العنكبوتْ

فآهًا لِعِزٍّ تَقَضَّى مَناما مُنِحْنا به الجاه دومًا كِراما
وكنّا نسوسُ أموراً عظاما وكنا عظاما فصرنا عظاما
وكُنَّا نقوتُ فها نحنُ قوتْ

وكنا لذا المُلكِ حَلْيَ الطُّلاَ فآهًا عليه زمانًا خَلاَ
نُعَوَّضُ من جِدَّةٍ بالبِلَى وكنا شموسَ سماء العلا
غربْنَ فناحت علينا السُّموتْ

تعوّدتُ بالرَّغْم صَرفَ الليالي وحمَّلتُ نفسي فوقَ احتمالِي
وأيقنتُ أَنْ سوفَ يأتي ارتحالي ومن كان منتظِراً للزوالِ
فكيف يُؤَمِّلُ منه الثبوتْ

هُوَ الموتُ يا مَا لهُ من نَبا يجوزُ الحجابَ إلى مَنْ أَبَى
ويألف أَخْذَ سَنِّي الخِبَا فكم أسلمِ مِ ذا الحسام الظُّبا
وذا البخت كم جَدَّلَتْهُ البُخُوتْ

هو الموت أفصحَ من عُجْمةٍ وأيقظَ بالوعظِ من نومةٍ
وسلاًّ عن الحزنِ ذا حُرْقَةٍ فكم سيق للقبر في خِرْقةٍ
فتى مُلِئتْ من كُساهُ التُّخُوتْ

تقضَّى زماني بعيشٍ خصيبِ وعندي لذنبي انكسارُ المنيبِ
هو الموت قد صِبْتُ منه نصيبي فقل للعِدَا ذهبَ ابنُ الخطيبِ
وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يفوتْ

مضى ابنُ الخطيبِ كَمَنْ قبلَهُ ومَنْ بعَدهُ يقتفي سُبْلَهُ
وهذا الرَّدى ناشرٌ شَمْلَهُ فمن كانَ يفرحُ مِنهمْ لهُ
فقلْ يفرحُ اليومَ مَن لا يموتْ

هو المـوت عمّ فما للعِدَا يُسَرُّونَ بي حين ذُقتُ الرَّدَى
ومن فاته اليوم يأتي غدا سيبلى الجديد إذا ما المَدَى
تتابع آحادُه والسبوتْ

أُخَيَّ تَوخَّ طريقَ النجاةِ وقَدِّمْ لنفسك قبل المماتِ
وشمرْ بِجِدٍّ لما هو آتِ ولا تغترِرْ بسرابِ الحياةِ
فإنك عما قريبٌ تَموتْ[1]

---

(١) «أزهار الرياض في أخبار عياض» لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٤)، والقصيدة لأحد بني الصبّاغ.